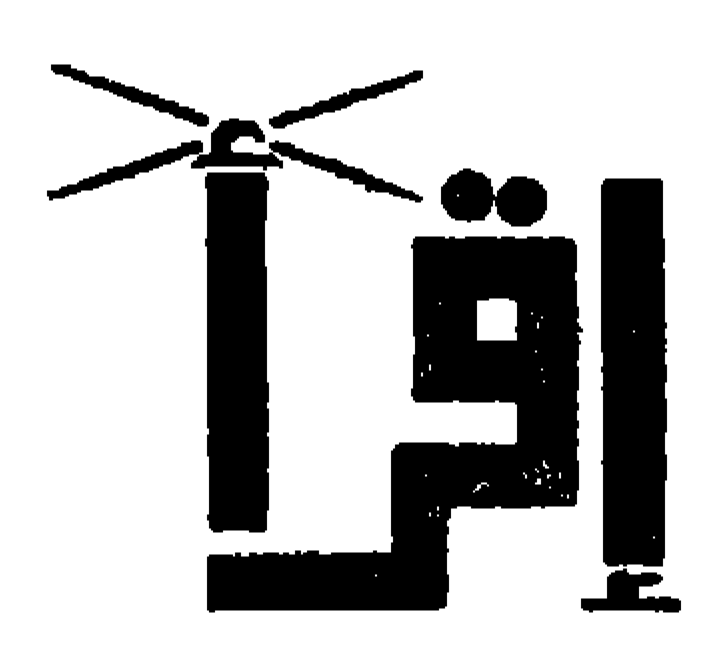


دكتور عبد العزيز كامل

الإسلام والعصر

عدد ممتاز



تصدر فى أول كل شهر

رئيس التحرير: السيد أبو النجا



دكتور عبد العزيز كامل

الإسلام والعصر

اقرأ ٣٥٩

دار المعارف بمصر

اقرأ ٣٥٩ – رمضان – أكتوبر سنة ١٩٧٢

الناشر : دار المعارف بمصر – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. م. ع

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله وسلام على عباده الذين اصطفى

مقدمة

* ماذا يستطيع الدين أن يقدم من عطاء للمجتمع ؟

* وكيف يستطيع إثبات ذاته على الصعيد الفكرى والعملى مستخدماً أدوات العصر ؟

هذا هو التحدى الكبير الذى يقابل الدين فى حياتنا المعاصرة ، يقابل الإسلام كما يقابل المسيحية وغيرهما من الأديان الكبرى .

وإن رصد هذه الجهود والاستفادة المتبادلة منها أصبح محل عناية عالمية ودراسة بدون حساسية ، ولعل أقرب الدراسات وأحدثها فى هذا المجال ما قامت به هيئة اليونسكو فى الجزء السادس من كتابها الكبير « تاريخ البشرية » . وهذا الجزء مخصص لدراسة القرن العشرين .

هذه المجموعة من الدراسات التى تمتد زمنيًّا من عام ١٩٦٤ إلى عام ١٩٧٢ محاولات فى هذا السبيل ، أرجو أن يكون من ورائها حوار يفتح الباب لتجارب أكثر منها خصوبة وإثماراً .

٦ من شعبان ١٣٩٢ هـ
١٤ من سبتمبر ١٩٧٢ م

عبد العزيز كامل

الفصل الأول

طريق إلى الإيمان

هذه محاولة للوصول إلى الإيمان عن طريق الفكر ، كتبتها منذ فترة ، لتكون المادة العلمية لفيلم تتعاون فيه الكلمة مع الصورة والنغمة واللحن . .

من أجل هذا جاءت صياغتها وتوازن عباراتها وفقراتها على هذا النهج .

وإذا كانت بعض العقبات الفنية قد حالت — حتى الآن — دون اكتمال التجربة ، فإنى لأرجو أن يكون فى قراءتها بعض الفائدة ، على الأقل أن تكون منطلقاً إلى حوار حول أساليبنا فى تقديم العقيدة إلى شبابنا ، أمل المستقبل فى مجتمع العلم والإيمان .

وقد رجعت فى مادتها العلمية إلى كتابات الأساتذة د. أحمد زكى : مع الله فى السماء ، ومجموعة د . عبد الرزاق نوفل ، ونديم الجسر فى قصة الإيمان ؛ ومؤلفات فى علوم الفلك ، والنبات ، والحيوان . . . والحياة الإفريقية ، ومن أهمها مؤلفات دكتور جمال الفندى وبازيل دافيدسن .

١

● هذا القلق الذى يعيش فيه الإنسان :

— قلق على مصير الإنسانية من حرب ذرية شاملة .

— قلق فى الدول المتقدمة من رعب تعيش فيه ، تحاول أن تغرقه فى الترف أو تغطيه بالبطش أو سباق التسلح .

— قلق فى الدول النامية مما تعانيه من حرمان ، وما تتطلع إليه من أمل ، وما تحمله من أعباء .

— قلق فى العلاقات الدولية من تناقض يعيش فيه العالم :

— بين أطماع المستغلين وحقوق الكادحين .

— بين تقدم العلم واستخدامه فى الحرب أو السلام .

— بين وفرة الإنتاج وتوزيعه .

— بين الثقة والشك .

● هل نحن مقبلون على عالم جديد من الإخاء والسلام أو مقبلون على فناء رهيب تصبح به الدنيا قبراً كبيراً . . ؟

● عالمنا هذا

هل ينقصه العلم ؟

هل ينقصه المال ؟

هل ينقصه الإنتاج ؟

كلها آخذة فى الزيادة وإليها تتجه جهود دائبة .

● فما العنصر المفقود الذى جعل من ثمار العقل الإنسانى وكشوفه المتفتحة — وجعل من خيرات البر والبحر والسماء أسلحة خطرة فى يد تجّار الحروب . . ؟

— الذى جعل العلم سلعة وسلاحاً وسوط عذاب فى يد القوى . . ؟

— الذى جعل المال مكدساً عند قوم يتفننون فى إنفاقه ، ويحرمون منه قوماً هم فى أشد الحاجة إليه . . ؟

— الذى جعل الإنتاج أسراراً وحرباً وصراعاً . . ؟

— الذى جعل الطعام ترفاً لحيوانات مدلّلة ، وحرم منه أطفالا يتضوّرون جوعاً . . ؟

● عالم من العلم والجهل . . والمال والفقر . . والترف والكدح . . والوفرة والحرمان . .

● ما العنصر المفقود الذى يجعل العلم والمال والإنتاج خيرات للإنسانية تسعد بها كما تسعد بشعاع الشمس وضياء القمر وجريان الماء وجمال الزهور . . ؟

إنه الإيمان

إيمان بالله ورسله وما أرسل من بيّنات .
إيمان بالأخوة الإنسانية والكرامة الإنسانية .
إيمان بالحرية والعدل والسلام .
إيمان دعا إليه كلُّ نبي ورسول . .
يتردّد من فوق المآذن . . وتدقّ به أجراس الكنائس . .
— تردّد من البيت الحرام . . وترنّم به الرعاة على جبل الجليل . .
وتجلّى فى سيناء . . عاش به الملايين فى رحاب الأرض وأعماق الزمن . .
— صلوات تتردّد . .
فى المساجد . . فى الكنائس . . فى المدينة . . فى الريف . . فى البر .
فى البحر . . فى الصحراء . . فى الجبل . . فى المصنع . . فى الحقل . .
مستجيبين لأمر الله .

● (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ) .

● هذا الإيمان عريق فى الإنسانية . . هو روحها الذى بدأت معه نشأتها الأولى .

— إيمان يردّها إلى الأب الأول — آدم عليه السلام — فتحسّ الدنيا كلّها أنها قد جاءت من ذرية نبيّ . .

— أنت وأنا وكل إنسان أبناء نبي كريم ، أبدعته يد الله ، ونفخ الله فيه من روحه ، وسوّاه بشراً سويّاً . . واستخلفه وذريته فى الأرض لينظر كيف يعملون . .

● وأنت مع هذه المكانة تذكر حدودها فى حوار دار بين إبراهيم

عليه السلام وربه، وسجله ربنا فى كتابه :

(وَإِذِ ٱبْتَلَى إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ

قَالَ : إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً .

قَال : وَمِنْ ذُرِّيَّتِى ؟ . . .

قَالَ : لَا يَنَالُ عَهْدِى الظَّالِمِينَ) . . .

عهد بلا ظلم .

(وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ) .

● هذا هو القبس الإلهى . . والنور الحىّ بين جوانحك . . النور الذى يدعوك دائماً إلى حب الإنسان ، وتكريم الإنسان . .

لا عصبية لون . . لا عصبية جنس . .

لا استعلاء . . لا استخذاء . .

فكلنا إخوة لأب واحد وأم واحدة . . لنا ربّ واحد . . منه النشأة الأولى وإليه المآب . .

ـ قبس إلهى يلتقى عنده الدين والعلم . وإليه انتهى الرأى العام العالمى من أجل الإنسان وكرامة الإنسان . .

كرامة نسمعها فى قول الله تعالى :

(يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ) .

نسمعها من خاتم المرسلين فى حجة الوداع :

● « أيها الناس ، إن ربكم واحد . وإن أباكم واحد . كلكم لآدم ،

وآدم من تراب . . إن أكرمكم عند الله أتقاكم . . ليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى » .

نسمعها من المسيح يخاطب بها الجموع .

« أنتم جميعاً إخوة . . أكبركم يكون خادماً لكم . . من يرفع نفسه يتضع ، ومن يضع نفسه يرتفع » . .

نقرؤها فى الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الذى أقرّته الأمم المتحدة فى عام ١٩٤٨ :

« يولد الناس أحراراً متساوين فى الكرامة والحقوق . وكلهم قد وهب الرشد والضمير . وعليهم أن يعامل بعضهم بعضاً بروح من الإخاء .. لكل إنسان الحق فى الحياة والحرية والأمن الشخصى » . .

● وما دمت تحسّ كرامة الإنسان نشأة ووجوداً ، فأنت تحسّ كرامته حياة تتطلع دائماً إلى الخير وحبًّا له . . حبًّا سرى عصارة حية فى تاريخ الإنسانية . . تراه فى أعماقها وآمادها . .

ـ نراه فى خلق العربىّ القديم عندما كان يوقد النيران على رؤوس الجبال ليهتدى بها الضيوف ليلا . .

وعندما كان يضيف إلى النار المشتعلة أخشاباً عطرية يحمل الهواء أريجها إلى بعيد ليهتدى بريحها المعطر من كان محروماً نعمة البصر . .

ـ بوحى منها دعا إليه المسيح الحزانى ليمسح عن عيونهم دموعاً ، والخاطئين ليأخذ بأيديهم إلى طريق التوبة والمغفرة .

ـ بوحى منها دعا خاتم الأنبياء لقومه بعد أن آذوه: « اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون » .

ـ بوحى منها دعا كل نبىّ ورسول إلى التكافل الاجتماعى . . وعلى هديهم تفجرت طاقات الخير فى النفس الإنسانية . .

ـ بوحى منها كان أبو بكر وعمر يتفقدان المحتاجين ، ويسعيان إلى الضعيف والأرملة والمريض .

ـ بوحي منها خرج عثمان بن عفان عن تجارة يحملها ألف بعير جاءت المدينة فى عام المجاعة . . فجعلها كلها صدقة على فقراء المدينة .

ـ بوحي منها يُعَلّم على بن أبى طالب أصحابه نبل القول حتى مع خصومهم . ويلتمس النور فى النفس وإن تراكمت عليها الظلمة فيقول ناصحاً أصحابه محدداً علاقتهم بخصومهم :

« إنى أكره أن تكونوا سبابين ، ولكنكم لو قلتم مكان سَبّكم إياهم : اللهم احقن دماءنا ودماءهم ، وأصلح ذات بيننا وبينهم ، واهدهم عن ضلالهم ، حتى يعرف الحق من جهله ، ويرعوى عن الغى والعدوان من لهج به » .

ـ عفة فى القول والعمل . . وعدل فى الغضب والرضا . . وتكريم للإنسان فلا يشقى جوعاً ، ولا يضل ترفاً ، ولا يعتدى تجبراً ، ولا يذل هواناً . . لا تَظْلِمون ولا تُظْلَمون .

● هذا هو النور المؤمن الذى سار مع الإنسان من فجر حياته . . يراه فيهتدى ويسعد ، (وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ) . . .

فلنحاول أن نتلمسه خارج دائرة النبوءات المعروفة . . وفى إطار من الإنسانية فى شمولها . . ذاكرين قول الله عن أنبيائه . (مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ) .

ـ هناك بعيداً فى قلب الغابة العذراء تحس أقباسه وضياءه . .

ـ عند القبائل التى ظنها كثير من الناس بعيدة عن الحضارة عاشت قيم أخلاقية لا تملك إلا أن تردها إلى الإيمان بالله وكرامة الإنسان .

ـ بعض هذه القبائل كالزاندى الذين يعيشون فى قلب إفريقية (١)

---

(١) وطن الزاندى فى منطقة الحدود بين جمهوريات السودان والكونغو زائيرى وإفريقية الوسطى : فهو موزع حالياً بين هذه الأقطار وإن كان جغرافياً تنظمه وحدة طبيعية وبشرية .

عندهم آداب — حتى فى الحروب — ما أحوج عالمنا المعاصر إلى الاقتداء بها :

غاية القتال عندهم أن ينسحب عدوك بأقل خسارة فى الأرواح والعتاد ، وعليك أن تتجنب تطويقه تطويقاً كاملا لئلا ييأس من النجاة فيلقى بنفسه — عند اليأس فى الميدان مهاجماً حاقداً ، أو منتقماً ضارباً .

هكذا يقاتلون ويتركون فجوة فى مؤخرة الجيش كى يفلت منها الخصم إن أحس بالهزيمة .

ومن قوانين الحرب عندهم ألا يبدءوها إلا عند الأصيل ، وبعد ساعات يحل الظلام . ويستطيع المهزوم — فى ستر الليل — أن ينسحب بأقل خسارة ممكنة .

هكذا نجد أعراف الحرب عندهم أقرب إلى العقل . . إن كان للحرب عقل . . من كثير من الحروب المدمرة التى تموج بها دنيانا .

● وفى الهند قبل احتكاكها بأوربا — لم يكونوا يحاربون ليلا . . يمضى الجنود نهارهم محاربين . . فإذا غربت الشمس وضعوا أسلحتهم . . ثم يأخذون فى الراحة والسمر ويتبادلون الطعام والشراب وينامون — بعد حرب النهار — متجاورين ، آمنين على أنفسهم وأسلحتهم من الغدر والخيانة . . الحراسة كانت حراسة الإيمان والضمير . هكذا حتى تطلع الشمس . .وعندئذ يبدءون يتناولون طعامهم ، وينظمون صفوفهم ، فإذا ما استعدوا نفخوا بوق الحرب . أحرب هى أم رياضة ؟ أم محاولة لتقليل الدم المسفوك . . ؟

— وأنت تحس قبساً من الإيمان فى كل ذلك . . قبساً من احترام الإنسان : دمه وماله .

ويتلفت عقلك وقلبك إلى مصدر هذا السمو الأخلاقى ، إلى خالق

الإنسان والإيمان ، وتتساءل عن مصير الإيمان . . عن الذين حملوا النور إلى أعماق الغابة أو إلى الأرض القصية ، وتعود لتذكر قول ربك عن أنبيائه : (مِنْهُمْ مَنْ قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُمْ مَنْ لَمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ) . . .

(فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً ، فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا) .

٢

● والآن ياصديقى . . .

أتحب أن نقوم معاً برحلة نتأمل فيها أنفسنا وما حولنا . . ؟

ترى من أين نبدأ لنجمع معاً زهوراً من الحديقة الإلهية ؟

ــ أنت الآن تسمع ما أقول .. وأمامك مشاهد من بديع صنع الله .. فكيف تسمع وترى . . ؟

● فى أذنك الداخلية أو التيه أقبية لولبية ونصف مستديرة . وفى القسم اللولبى وحده أربعة آلاف قوس صغيرة متصلة بعصب السمع فى الرأس !

وفى الأذن مائة ألف خلية سمعية ، وتنتهى الأعصاب بأهداب غاية فى الدقة إلى درجة مذهلة .

ــ وعينك تحتوى على نحو مائة وثلاثين مليوناً من أعصاب الإبصار ، تستقبل الضوء ، ويحميها الجفنان ذوا الأهداب والحركة غير الإرادية التى تحفظها من الأتربة ولأجسام الغريبة ، وتكسر بظلالها على العين من حدة الضوء وتمنع جفاف العين .

وشبكيّة عينك التي تتلقى صورة الشيء المرئي مكونة من تسع طبقات منفصلة – هي في مجموعها أقل سمكاً من ورقة رقيقة . والطبقة الداخلية القصوى منها تتكون من أعواد ومخروطات . . وعدد الأعواد نحو ثلاثين مليوناً ، وعدد المخروطات نحو ثلاثة ملايين !

وهذه الملايين من الأعواد والمخروطات والأعصاب . . وهذه الطبقات المتتابعة – كل أولئك ينتظمه تناسب محكم فيما بينها .

وهي تتلقى الصورة مقلوبة ، إلا أنها تعيدها إلى صورتها الأولى عن طريق ملايين من خيوط الأعصاب الموصلة إلى المخ .

كل هذه التنظيمات لابد أنها حدثت في وقت واحد ، لأنها متكاملة وبدون تكاملها يستحيل الإبصار .

وكيف استطاع كل عصب وكل خلية أن يعرف احتياجات غيره ويوائم بينها وبين نفسه ؟

ألا يدل ذلك على العليم الخبير . . ؟

فلنسمع الآن معاً إلى هذا النغم . . بأذن مؤمنة . .

ولنَرَ معاً هذه المشاهد بعين مؤمنة . .

(هٰذَا خَلْقُ اللهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ ، بَلِ الظَّالِمُونَ فِى ضَلَالٍ مُبِينٍ) .

٣

● هذا بعض القول عن السمع والبصر وحدهما . .

وقد يقال إنها مصادفة . . أو قوة ذاتية في الأشياء . فلنعرض هذا القول على العلم . بهذا أمرنا ربنا .

أمرنا عندما علّم خاتم أنبيائه هذا الدعاء : (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِى عِلْماً) .

ولو كان هناك شيء أكرم وأشرف من العلم لأمر الله نبيه أن يطلبه منه ، والمسيح كان ينادى بهذا اللقب الشريف (يامعلم) . .

والعلم باب خشية الله ، (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) .

فليكن دعاؤنا مع خاتم المرسلين (رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) .

● والآن ياصديقى . . .

أترى هؤلاء الأطفال . .

إنهم يلعبون وبين أيديهم صندوق به عشر قطع مرقمة من واحد إلى عشرة . .

إنهم يبذلون الجهد فى محاولة إخراج القطع مرتبة .

رقم واحد أولا . . ويليه رقم اثنين . .

وهم مصممون على النجاح ومستمرون فى المحاولة .

إنهم إذا نظروا إلى القطع استطاعوا ترتيبها فوراً . . ولكن كم من الوقت يحتاجون إليه إذا اعتمدوا على المصادفة ؟ . . إنهم ينظرون إلينا ويسألون . . فما إجابتنا ؟

● ليس بين أيدينا أيها الأبناء إلا العلم . . ونظرية الاحتمالات . .

ـ احتمال خروج القطعة رقم واحد أولا هو بنسبة ١ : ١٠ .

ـ واحتمال خروج القطعة رقم واحد وتليها القطعة رقم ٢ هو بنسبة ١ : ١٠٠ .

ـ واحتمال خروج القطعة من واحد إلى ثلاثة مرتبة هو بنسبة ١ : ١٠٠٠ .

ـ وهكذا نجد أن احتمال خروج القطع العشرة مرتبة هو بنسبة واحد إلى عشرة بلايين : (١ : ١٠,٠٠٠,٠٠٠,٠٠٠) .

حيث البليون أو المليار ألف مليون .

بعبارة أخرى :

لو حسبنا أن المحاولة الواحدة يمكن أن تتم فى عشر ثوان لاحتاج الأطفال لكى يتموا العشرة بلايين تجربة إلى أكثر من ثلاثة آلاف سنة . ولو واتاهم الحظ لأتموها قبل ذلك .

ولكن لو نظروا لأتموها فى عشر ثوان !

إن الفرق بين الرؤية والمصادفة هنا هو الفرق بين النور والظلام . . بين الهدى والهوى .

(أَوَمَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا) ؟

هذا فى ترتيب عشر قطع خشبية مرقمة يعبث بها أطفال . .

هل أحدّثك بعد هذا عن القلب وحجراته ووظيفته ومهمته وكفايته ؟

أتحب أن تقارن بين القلب الذى أبدعته يد الله والقلب الصناعى .. حجمه . . عدد العاملين فيه . . نفقاته . . صيانته . . كفايته ؟

هذه نافذة . . مجرد نافذة تطل بها على نفسك . (وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ . وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ) ؟

٤

والآن : أتحب أن نطوف معاً فى هذه الحديقة الجميلة . . ؟

أترى النحل . . ؟ أنت تعلم دقّتها ونظامها فى مملكتها . .

إن البحث العلمى أثبت للنحل لغة تتفاهم بها .. لغة قادرة على إيصال المعلومات ، فيها إرسال واستقبال .

ونحن نستطيع أن ندرس النحل بطريقتين :

الأولى : باستخدام خلايا المراقبة ، وبها نوافذ زجاجية نستطيع أن نلاحظ منها النحل بدون إزعاجها .

الثانية : باستخدام حروف أو أرقام أو ألوان معينة نميز بها النحل التى نودّ ملاحظتها فى التجربة .

ولنذكر هنا بعض تجارب أجراها الباحث فون فريتش فى هذا المجال :

— أمامنا طبق به محلول مركز من مادة سكرية موضوع على مسافة خمسين متراً إلى الشمال من مستعمرة للنحل تعيش داخل خلايا المراقبة .

هاهى ذى نحلة تكتشف الطبق فتندفع إليه وترتشف منه حتى تمتلئ حويصلتها وتطير . . ولكنها تحوم حول المكان .

إنها تتعرف على ما به من مرئيات ، حتى لا تضل إليه الطريق من بعد .

هذا هو طيران التعرّف .

فلنميّز هذه النحلة بطلاء من لون معين ، ولنتابع ملاحظتها بعد أن تعود إلى الخلية . . إنها ترقص بين زميلاتها الشغالة . . إنها تتوقف قليلا لتعطيها قليلا من الشراب ، ثم تعود إلى الرقص . . الشغالة تراقب الرقص باهتمام شديد . . بعض الشغالة غادرت الخلية وذهبت مباشرة إلى الطبق فى الشمال لتحصل منه على نصيب .

ليس أمامنا إلا أن نفترض أن النحلة الأولى قد استطاعت عن طريق الرقص أن تنقل إلى صاحباتها معلومات تتعلق بأمرين :

الأول : وجود شراب سكرى خارج الخلية . .

الثانى : وجود هذا الشراب السكرى إلى الشمال من الخلية .

وتعود النحل إلى الخلية حيث ترقص وتنقل الأخبار من جديد . .

ولم يكتف الباحث بهذه النتيجة .. فلننتظر ما صنع مع النحل . . . وما صنعت النحل معه .

لقد أضاف ثلاثة أطباق أخرى من الشراب السكرى نفسه ، ووضعها على البعد نفسه إلى شرق الخلية وغربها وجنوبها . وجمع عدداً من النحل التى عرفت طريقها إلى الشراب الأول ، وميّزها بعلامات من الطلاء الملون ، ثم أطلقها من الخلية . . فوجد أنها ذهبت إلى الأطباق الأربعة بدون تمييز ، وإن استرعى انتباهه أن عدد ما ذهب إلى كل منها كان متقارباً .

فكأن المعلومات التى تلقتها النحل أن الشراب السكرى موجود فى الأطباق الأربعة .

ويزيد الباحث التجربة تعقيداً . . فيضيف إلى شراب الطبق الأول قليلا من العطر . .

وتكتشف النحل التى ذهبت إليه هذه الحقيقة ، فتخبر بها صاحباتها . . وإذا جميع النحل التى شاهدت الرقص تتجه إلى الطبق الأول المعطر من دون الأطباق الثلاثة الأخرى غير المعطرة . .

فكأن نقل المعلومات هنا تضمن :

أولا : وجود الشراب .

ثانياً : وجود العطر .

ثالثاً : مكان الشراب المعطر .

هذه لغة الرقص والعطر !

— ولكن . . كيف تحدد النحل الاتجاه والمسافة . . ؟

لقد كشف الباحث أن للنحل نوعين من الرقص . .

الأول : الرقصة الدائرية . وفيها تتخذ الرقصة صورة دوائر صغيرة متتالية فى اتجاه عقرب الساعة ، ثم تعكس اتجاهها .. وهذه تستخدمها النحل للدلالة على المسافات التى تقل عن مائة متر .

الثانى : رقصة الذنب . وهذه على شكل 8 ، وهى لما زاد من المسافات على مائة متر .

— فإذا كانت الأزهار تبعد عن الخلية نحو ثلثمائة متر . . فإن النحلة تدور ثمانى وعشرين دورة كاملة فى الدقيقة كالحرف 8 . أما إذا كانت تبعد نحو ثلاثة كيلومترات فإنها لا تدور سوى تسع دورات فقط . وتبطىء الدورات وتقل حتى تنعدم إذا كان بُعد الأزهار عن الخلية خارج دائرة نصف قطرها خمسة كيلو مترات .

— ولاحظ الباحث أن النحلة تستطيع أن تستعين باتجاه رأسها على تحديد مكان الهدف بالنسبة إلى الخلية . .

فإذا كان الرأس إلى أعلى كان الطعام فى اتجاه الشمس . .

وإذا كان الرأس إلى أسفل كان الطعام عكس اتجاه الشمس . .

— ولاحظ الباحث أكثر من ذلك . .

فالنحلة لا تواجه الشمس دائماً بحركة رأسها فى رفعه وتنكيسه ، وإنما تنحرف أحياناً عن هذه المواجهة يميناً أو يساراً بزوايا انحراف متباينة . . وزاوية الانحراف هذه ثبت أن ضلعيها :

— الخط الوهمى الممتد بين الخلية واتجاه الشمس ، وهو الخط الأساسى عند النحلة . .

— الخط الوهمى الممتد بين الخلية ومكان الطعام أو الزهور . .

فالنحل بهذا تستخدم الشمس فى تحديد مكانها وتحديد زاوية انحرافها عنها .

هذه هى بوصلة الشمس التى تستخدمها النحل فى صفو السماء وغيمها ، وتحدد بها سبيلها .

ولنقرأ مع هذا قول الله تعالى :

(وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِى مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا

وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً) . .

أرأيت إلى بعض الأعماق فى قوله تعالى : (فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً)

– واستمرت هذه الدراسات سنوات ولا تزال . .

عرف بها الإنسان جانباً من منطق الطير . .

وفتحت أمامنا عالماً مجهولا . . وكم من عوالم أمامنا لا تزال مجهولة . .

وقربتنا كثيراً من تفهم قول الله تعالى فى قصة سليمان والنمل :

(حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَاأَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ . فَتَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا . وَقَالَ : رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ) .

٥

● ولندع الآن النحل برياضاته وأبعاده وزواياه ورقصه وعطره إلى عالم آخر من الرعى والزراعة والادخار والصيانة والدقة الصارمة فى تقسيم الأعمال والدفاع عن الديار .

إنه عالم النمل

وقد درس ديكنسون مدينة النمل نحو عشرين عاماً فى بقاع مختلفة من العالم فوجد فيها ذلك كله :

— وجد أن النمل يمارس الرعى ..

فى مطلع الربيع يرسل النمل رسله ليجمعوا له بيض حشرة « المن » ويحفظ البيض فى مستعمرته ، ويعنى به حتى يفقس وتخرج صغاره ، ثم يحمله إلى الخارج ويضعه على النباتات التى تفرز الندوة العسلية . وعند الليل يعود به النمل إلى بيته ، كما يعود الفلاح بأبقاره من المرعى كى يحلبها . وحينما تمسح النملة ظهر حشرة المَنّ بقرونها تدرّ ذلك السائل الحلو . وتنتج هذه الحشرة نحو ثمان وأربعين قطرة من الرحيق الحلو فى اليوم . ويعادل هذا نحو مائة ضعف لما تنتجه البقرة من اللبن بالنسبة إلى حجمها !

بل لقد أثبتت الملاحظة أن النمل يبنى حجرات خاصة لما يحتفظ به من حشرات المن .. تماماً كما يبنى الفلاح حظيرة أبقاره .. هذا هو النمل الراعى .

● ويمارس النمل الزراعة أيضاً ...

ويذكر الباحث أن النمل زرع مساحة من الأرض قدرها خمسة عشر متراً على أدق أصول الزراعة :

— مجموعة متخصصة بأن تضع البذور ..

— مجموعة مختصة بتطهير الأرض من الأعشاب الضارة ..

— مجموعة للحراسة ..

ويستوى النبات على سوقه وتمتلئ السنابل بالحب بعد طول العناء . . .

ويبدأ موسم الحصاد :

صفوف من الشغالة تعمل بدون انقطاع ..

ها هى ذى تتجه إلى العيدان فتتسلقها إلى السنابل ، وتنزع كل

نملة حبة وتنزل بها سريعاً إلى مخزن تحت الأرض .

وقد طلى الباحث أفراد النمل بألوان مميزة ، فوجد أن الفريق الواحد من النمل يذهب دائماً إلى العود الواحد حتى يفرغ ما عليه من الأرز فينتقل إلى غيره .

وتم الحصاد ..

ولكن المطر سقط أياماً .. وعاد الباحث بعد انقطاع المطر ليرقب مستعمرة النمل فإذا به يجد البيوت تحت الأرض مزدحمة بالعمل ..

كل نملة تخرج من مسكنها حاملة حبة أرز تذهب بها إلى منحدر من الأرض يواجه الشمس وتضع عليه الحبوب حتى تجف ..

وعند الأصيل كان الأرز قد جف ، وعاد النمل ليحمل غذاءه إلى مساكنه تحت الأرض .

فمن ألهم النمل هذا الإعجاز الذى يقوم به ؟

(وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِى الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ . مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَىْءٍ ، ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) .

٦

● تعال معى إلى رحلة فى عالم الماء .. بعد رحلتنا فى أرض حدائق النحل ، ومزارع النمل ومراعيه .

وعالم البحر ملىء بالإعجاز ..

ولنأخذ مثالا من رحلات منتظمة لها مركز واحد وفروع متشعبة .. كأنها خطوط سفن بحرية أو شركة طيران عالمية ..

رحلات بلغت درجة رائعة من الدقة والتنظيم ..

ـ إنها رحلة ثعابين الماء ..

وأنت تراها فى أنهارها خضراء اللون ، لا تكاد تتميز عن النباتات النامية على الضفاف ، يوفر لها لونها الأخضر قدراً من الحماية فى موطن تغلب فيه الخضرة .

وعندما يكتمل نموها بين السابعة والعاشرة من سنوات عمرها تنشط فجأة وتهبط مجرى النهر ، تاركة مياهه العذبة بهدوئها وكدرتها وضفافها الخضراء ، وتتجه إلى البحر .

ـ إن جلدها الأخضر الذى كانت تستتر به فى حياتها النهرية أصبح غير ملائم لرحلة البحر .. البحر بلمعانه وزرقته؛ فلتدع هذا الجلد الأخضر إلى جلد فضى يخفيها عن أعدائها وسط زرقة الماء ولمعانه ..

وتسبح الثعابين من مختلف الأنهار فى رحلات طويلة تبلغ آلاف الأميال قاصدة كلها مكاناً واحداً .. هو الأعماق السحيقة فى جزر الهند الغربية إلى الجنوب والجنوب الشرقى من برمودة ..

هناك تلتقى الثعابين التى خرجت من أوربا وإفريقية بالثعابين التى خرجت من أمريكا ..

وفى بقعة الإنسال هذه تهبط الثعابين إلى عمق يقرب من ألف متر حيث تضع الإناث بيضها فى الماء ، ويتم إخصابها خارجياً فى ماء المحيط ..

وكما يرسل الله الرياح لواقح تحمل فيما تحمل حبوب اللقاح فتخصب النبات .. يجعل الماء وسيلة اللقاح فى هذه الكائنات البحرية ..

تبارك الله !

ماء هو الحياة لكائنات .. وهو الموت لكائنات ..

وهواء هو الحياة لكائنات .. وهو الموت لكائنات أخرى ..

وتنتهى مهمة هذا الجيل من الثعابين وتودع حياتها فى المحيط .. كما بدأتها فى المحيط ..

وبعد مدة تخرج الصغار من البيض ..

مخلوقات صلبة شفافة كأنها خيوط صغيرة لها عيون بارزة .. ملايين وملايين من هذه اليرقات الصغيرة ..

وتسبح اليرقات جميعاً متجهة إلى الشمال حتى تصل إلى جزائر برمودة ، ومن هناك يبدأ الافتراق ، وتتخذ كل مجموعة طريقها إلى موطن آبائها : يرقات إفريقية وأوربا تتجه شرقاً .. ويرقات أمريكا تعود إلى أنهارها ..

رحلة طويلة تقوم بها اليرقات الصغيرة قد تستمر إلى الأنهار البعيدة أكثر من ثلاثة أعوام ، تقاوم فيها التيارات المائية العنيفة ، والأمواج المتدافعة ، والعواصف والرعود ، متجهة إلى موطن الآباء ..

فإذا ما وصلت إلى شاطئ القارة أخذت تتحسس طريقها إلى النهر الذى جاءت منه .

وتعيش بعض اليرقات قرب المصب ، وهذه عندما تكبر تصبح ذكوراً .. ويصعد البعض إلى أعالى النهر ، وهذه عندما تكبر تكون إناثاً .. ويعيش الجنسان مفترقين طالما كانا فى النهر .

فإذا ما اكتمل نموهما اتجهت الإناث إلى مصب النهر وبدأت مع الذكور رحلة العمر إلى المحيط .. إلى الأعماق ليبدأ هناك من حياتها جيل جديد ..

ولم يحدث أن صيد ثعبان أمريكى فى المياه الإفريقية أو الأوربية .. أو صيد ثعبان من الشرق فى المياه الأمريكية ..

فمن الذى أعطى هذه المخلوقات الدقيقة قدرتها على معرفة مواطنها التى لم ترها من قبل ، ووجهها خلال الرحلة الطويلة بين الأعماق التى ولدت فيها ، وموطن الآباء الذى تسعى إليه .. ؟

إنه الله « الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى » .

٧

● وهذه الطيور المهاجرة بتشكيلاتها الفنية الهادفة كأنما تمارس نوعاً من الفن للحياة ، وفى ذلك تبصرة وذكرى ..

ـ جماعات البط فى صورة رأس السهم .

إنه تنظيم يساعد كل طائر منها على رؤية القائد وهو يتجنب فى الوقت نفسه تيار الهواء الذى يحدثه الطائر الذى أمامه ..

ولكن عندما يشتد عصف الرياح فإن الصفين ينضمان ، وتصبح المجموعة مؤلفة من خط واحد لكى تتجنب ـ إلى أدنى حد ممكن ـ تأثير الرياح العاصفة على السرب .

ـ وهذه الرحلات تقوم بها مئات الأنواع من الطيور نحو الجنوب فى الخريف ، ونحو الشمال فى الربيع ..

ويلتزم كل نوع نظاماً للرحيل ، حتى إن طلائع النوع تصل إلى هدفها فى موعد لا يتغير من عام إلى عام .. ولا يتباعد أكثر من بضعة أيام .

آلاف السنين مرّت على هذه الأنظمة الدقيقة .. تهاجر من أجل طعامها وهى تبحث عن الطعام الذى يلائمها على مدار السنة .. ودرجة الحرارة التى تستطيع أن تتحملها .. الجوّ والطعام .

ومن أشهر الطيور المهاجرة « الزقزاق الذهبى » وهو طائر رشيق طويل الجناحين صغير الحجم يتوالد فى المنطقة القطبية الشمالية وفى أواخر الصيف وأوائل الخريف يهاجر الكبار منه والصغار فوق المحيط الأطلسى . فإذا صادفها جو جميل فإنها لا تتوقف إلى أن تصل إلى الساحل الشمالى لأمريكا الجنوبية فى طريقها إلى مشتاها فى الأرجنتين وجنوبى البرازيل .

ويستطيع الزقزاق الذهبى على صغر حجمه أن يقطع بدون توقف

ألفي ميل من رحلته فوق المحيط .. وهي رحلة تعدّ عملا خارقاً من أعمال الصبر والتحمل ..

ومن المحتمل أن تكون أطول رحلات الهجرة تلك التي يقوم بها خطاف البحر القطبي ، وهو طائر يقضي صيفه في المنطقة القطبية الشمالية ، وشتاءه في القارة القطبية الجنوبية ، وبهذا يصل مدى رحلته السنوية بين الموطنين إلى خمسة وثلاثين ألف ميل ..

(أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ) .

٨

وهذه النجوم التي تراها فوقك والتي أقسم الله بمواقعها فقال :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) .

هذه النجوم بعددها الضخم تدخل في بناء المجرات ... وتتعدد المجرات في السماء ، ولنقصر حديثنا الآن على مجرتنا كوحدة من وحدات الكون ..

إنها تبدو للناظر بالعين المجردة كأن بها نحواً من ألفي نجم . ويرتفع هذا العدد بالمناظير الكبيرة إلى ما يزيد على مائة مليون نجم ، موزعة كأنها القرص المفرطح الرقيق نسبيًّا عند أطرافه والذى يبلغ قطره نحو مائة ألف سنة ضوئية .

ولكن ما السنة الضوئية ؟

إن سرعة الضوء فى الثانية الواحدة هى ٣٠٠ ألف كيلو متر ..

وبهذا تعادل السنة الضوئية نحو عشرة ملايين ملايين كيلو متر .

وقطر المجرة نحو ستين ألف سنة ضوئية .. أى أنك لو ركبت شعاعاً من الضوء سرعته ٣٠٠ ألف كيلو متر فى الثانية لما استطعت عبور المجرة — بدون توقف — إلا بعد رحلة تستمر مائة ألف سنة .. أعطاك الله العمر الطويل .. هذا فى مجرة واحدة ..

والنجوم غير موزعة بالتساوى داخل المجرة .. فهى تزدحم فى بعض أجزائها ، وتشبه السحاب العالى الذى يضىء ضوءاً خافتاً ، والذى أطلق عليه القدماء أكثر من اسم ..

فهو نهر المجرة .. كأنه النهر الجارى .

وهو طريق التبانة أو سكة التبانة .. كأن التبن قد انتثر على أرض من التبانة الذين يحملونه على دوابهم ..

وهو طريق اللبن عند الإفريقيين كأنه اللبن المسكوب .

والمسافات بين النجوم تبلغ حد الخيال ..

وأقرب مجموعات النجوم التى تكون طريق التبانة يصل ضوؤها إلينا فى عدة سنين ..

وكثير من النجوم تبعد عنا بمسافات يقطعها الضوء فى نحو ألف سنة ..

أى أنها تبعد عنا ألف سنة ضوئية ..

هل نذكر معاً أن سرعة الضوء فى الثانية ٣٠٠ ألف كيلو متر ..؟

هذا القرص يدور حول نفسه فى الفراغ . ولعظم حجمه لم يتم أكثر من عشرين دورة حول نفسه منذ ظهور أقدم النجوم فيه ..

أى منذ أربعة آلاف مليون سنة برغم السرعة الهائلة التى تتحرك بها حافة القرص والتى تبلغ نحواً من مليون ميل فى الساعة الواحدة ..

أرأيت إلى جانب من مواقع النجوم وبعض الحكمة فى قول الله تعالى:

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ) .

وتتعدد المجرات فى الفضاء الفسيح وتتكرر كلما خرجنا إلى أعماقه .

تعبير سهل « خرجنا » فلنترجمه إلى أرقام ..

أقرب المجرات إلينا هى الأندروميدا أو المرآة المسلسلة ، ويبعد هذا السديم أو هذه المجرة عنا بنحو من سبعمائة وخمسين ألف سنة ضوئية ..

أتحب أن تقوم بالرحلة ...

مرة أخرى إذا اتخذت الضوء مركباً وتحركت بسرعة ثلثمائة ألف كيلو متر فى الثانية بدون توقف لما استطعت الوصول إلى الأندروميدا إلا بعد طيران — بسرعة الشعاع لمدة سبعمائة وخمسين ألف سنة.

وهذه أقرب المجرات إلينا ...

ومن المجرات ما بعده الملايين من السنين الضوئية ومئات الملايين .. واستطاع العلماء تقدير هذه الأبعاد بما لاحظوه فى النجوم من لمعان وخفوت على فترات من الزمن لا يختلف طولها ..

والآن أتدرى يا صديقى ما عدد هذه المجرات .. ؟

إنها مائة مليون أو تزيد فى فضاء هذا الكون الواسع . ونعود إلى قول الله تعالى :

(فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ . وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)

(وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) .

٩

● من هذه العوالم الجبارة نودّ أن نختم رحلتنا بأصغر هذه العوالم وأخطرها .. إلى الذرة .

لقد كنا نقيس المسافات فى الكون الفسيح بالسنوات الضوئية وعشراتها ومئاتها وملايينها .

فكيف نقيس المسافات فى الذرة .. هذا العالم الصغير الذى اقتحمه الإنسان ، فإذا به عالم مهول جبّار ؟!

إن هذا العالم لا يقاس بالملّيمتر ولا بجزء من الألف منه ، وإنما يقاس بجزء من عشرة ملايين من الملّيمتر .. وتسمى وحدة القياس هذه باسم مبتدعها العالم السويدى « أنجشتروم » .

وذرة الإيدروجين ، وهى أصغر الذرات ، قطرها ١,٠٦ أنجشتروم .

— والوزن .. كيف نزن الذرة ..؟

إنه ليس الجرام ولا جزءاً من مليون من الجرام . ولكنه جزء من مليون مليون مليون جزء من الجرام . وذرة الإيدروجين أخف الذرات وزنها ١,٦٧ من هذه الوحدة !

— مرة أخرى عدنا إلى ملايين الملايين .. المتناهية فى الضآلة بعد أن كنا فى حساب الملايين المتناهية فى الضخامة والجبروت ..

● ولو قمنا برحلة فى الذرة فماذا نجد ؟

— سنمر أولا بالطبقة الخارجية وهى التى تحتوى على وحدات من الكهربا تسمى بالإلكترونات .

وإذا ما ضاق مدار عن أن يستوعب الإلكترونات تكوّن مدار آخر .. فإذا ضاق تكون مدار ثالث . . أو أفق ثالث أو سماء ثالثة فى الذرة .

ونحن نتابع رحلتنا فى جوف الذرة .. فى فراغ . . حتى نصل إلى النواة وهى قلبها الذى يتركز فيه وزنها .

نعم ؛ فراغ لأن النسبة بين قطر النواة وقطر الذرة هي بنسبة ١ : ١٠,٠٠٠ ، وانتشار الإلكترونات حول النواة يشبه فى صورته العامة انتشار الكواكب فى المجموعة الشمسية حول الشمس .

— إن الفراغ أكبر كثيراً من المادة .

— إن المادة فى صميمها لا تكاد تحتل من هذا الوجود شيئاً .

● ولا تحتوى النواة على الإلكترونات .. وإنما بها بروتونات موجبة الشحنة متجاورة بدون أن تباعد قوى التنافر بينها ..

وعدد البروتونات فى النواة يساوى عدد الإلكترونات .

— الإيدروجين مثلا له غلاف واحد يدور فيه ألكترون واحد ، وفى نواته بروتون واحد .

— واليورانيوم أثقل العناصر فى الطبيعة — بنواته اثنان وتسعون بروتوناً وبمداراته اثنان وتسعون إلكتروناً .

وهذه هى الأعداد الذرية للعناصر ..

● ولكن البحث أثبت أن كتل هذه الذرات تزيد من مجموع كتل ما بها من بروتونات وإلكترونات .

— لابد إذن من وجود أجسام أخرى فى الذرة لا تخل بتعادلها الكهربى .

— وتتكشف هذه الأجسام الثالثة فإذا هى « النيوترون » واللفظ يدل على التعادل أو الحياد .

— وما زالت الكشوف تتوالى من هذا الكون الصغير من الذرة ..

● من هذه النواة تنبع مصادر الطاقة الذرية التى يسخرها الإنسان فى الحرب والسلم على السواء ، منها تنبعث الإشعاعات الذرية التى عمت استخداماتها ميادين العلم والطب والزراعة والصناعة ومنها تنبعث النيوترونات التى تسلط على ذرات العناصر الخاملة المستقرة فتحولها إلى عناصر مشعة من النوع نفسه — هذه هى النظائر المشعة .

ولو قذفت ذرات العناصر الثقيلة كاليورانيوم والبلوتونيوم بفيض من النيوترونات فإن ذراتها تنشطر انشطاراً نوويا منتجة طاقة كبرى تستخدم فى السلم فى المفاعلات الذرية وفى الحرب فى القنابل الذرية .

وبقذف بعض ذرات العناصر بالنيوترونات تتحول إلى عناصر أخرى أى تتحول المعادن بعضها إلى بعض ..

١٠

أرأيت إلى هذا الكون الكبير ؟

كل مادته من البرتون والإلكترون والنيوترون .

ما أبسط الكون وما أعظمه !

بل ما أبسط الإيمان وما أعظمه !

● على أساس من الوزن الذرى رتب العلماء العناصر المعروفة .. رتبوها فى مجموعات كل مجموعة منها فى ثمانية عناصر متدرجة كأنها السلم الموسيقى .. علم وفن ..

(مَا تَرَى فِى خَلْقِ الرَّحْمٰنِ مِنْ تَفَاوُتٍ)

وامتلأت خانات ، وبقيت خانات فارغة ..

ويمضى الزمن ويزيد الجدول امتلاء ..

وتظهر عناصر جديدة لكل منها الخواص نفسها التى تتطلبها هذه الخانة أو تلك .

● وكانت نبوءة عجيبة من أعجب نبوءات العلم .. تحققت بأروع ما تتحقق به النبوءات وبينت جانباً من نظام الكون ودقته ..

كان الإيدروجين أخف العناصر وله الخانة الأولى ..

واليورانيوم أثقل العناصر وله الخانة الثانية والتسعون .

وفتح العلماء الخانة الثالثة والتسعين .. البيلوتونيوم ..

وزادوا . . ما داموا قد كشفوا القاعدة حتى تعدوا المائة ..

— تركيب العناصر ..

— ترتيب العناصر ..

— تحويل العناصر بعضها إلى بعض .

— تحويل العنصر إلى طاقة .. عندما مس الإنسان قلب الذرة وخرج منها المارد الجبار ..

تحولت المادة إلى طاقة .. إلى إشعاع ..

وكل إشعاع فى الدنيا صور متعددة لقوة واحدة .. تلك القوة المغناطيسية الكهربية ..

● ويأتى أينشتين ليكافئ بين المادة والقوة ..

وتصدق التجارب قوله عندما انفجرت الذرة فى قنبلة اليورانيوم ..

— المادة والقوة شىء واحد

فماذا بقى .. ؟

— بقيت الجاذبية .. ذلك الرباط الذى يربط الكون كله ..

بقى الزمان والمكان ..

ويربط أينشتين بينهما فيجعلهما شيئاً متواصلا فى أعماق الحقيقة ..

١١

وإذا الحقائق التى كانت تبدو أمامنا متعددة متباينة تجتمع جميعاً لتصب فى هذا المجرى الواحد الذى ينتظم الوجود كله ..

ومازال الإنسان ومعه العقل — أنضج هدايا الله إليه — يكشف فى ضوء مصباحه كل يوم جديداً من أسرار الكون ..

— ويتأمل أينشتين هذا الكون ويقول :

« إن الذى لا تجيش نفسه لهذا ، ولا تتحرك عاطفته ، حى كميت ،

إنه خفاء لا نستطيع أن نشق حجبه .. ومع هذا نحن ندرك أن وراءه شيئاً هو الحكمة .. أحكم ما تكون ..ونحس وراءه شيئاً هو الجمال .. أجمل ما يكون ..

وهو حكمة وهو جمال لا تستطيع أن تدركهما عقولنا القاصرة إلا فى صور بدائية أولية ..

وهذا الإدراك للحكمة .. وهذا الإحساس بالجمال — فى روعته هو جوهر العبادة عند الناس .

إن الشعور الدينى الذى يستشعره الباحث فى الكون هو أقوى حافز على البحث العلمى وأنبل حافز ..

إن دينى هو إعجابى — فى تواضع — بتلك الروح السامية التى لا حدّ لها .. تلك التى تتراءى فى التفاصيل الصغيرة القليلة التى تستطيع أن تدركها عقولنا الضعيفة العاجزة .. وهو إيمانى العاطفى العميق بوجود قدرة عاقلة مهيمنة تتراءى حيثما نظرنا فى هذا الكون المعجز للأفهام .. ومن هنا ينبع إيمانى بالله » .

١٢

والآن يا صديقى ويا أخى ..

هذه رحلتنا السريعة حاولنا فيها معاً أن نتلمس على أساس علمى جوهر الإيمان بالله ..

العنصر الأساسى الذى تفتقده الإنسانية والذى يستطيع أن يحيل شقاءها سعادة وخوفها أمناً ..

إذا ما عاد الإيمان إلى القلب ،

وعادت الثقة بين الناس ،

وأخذت الشعوب حقوقها بدون عدوان أو اغتصاب ..

استطاعت أن تحيل طاقاتها إلى البناء دون الهدم ، وأن توجه الملايين التى تنفقها على السلاح إلى معالجة مشكلات الإنسانية الكبرى ..

مشكلات الانفجار السكانى

الفقر

توفير الغذاء والسكن

القلق الذى تعانيه الإنسانية

— الصحارى يمكن تحويلها إلى حقول خضراء إذا أمكن تحويل مياه البحر الملحة إلى عذبة بنفقات عملية ..

— البحار نفسها يمكن فلاحتها خارج المياه الإقليمية لتكون مورداً للطعام للجنس البشرى كله ..

ويومئذ يتحقق أمل الإنسانية

طعام لكل فم

مسكن لكل أسرة

بسمة لكل شفة

علم لكل عقل

إيمان لكل قلب

ويومئذ تصبح أرضنا أرض السلام

أرض الإيمان .

الفصل الثانى

الطريق إلى مكّة

هذا تعليق على فلم تسجيلى قامت به وزارة الأنباء والإرشاد بدولة الكويت وساهم فيه الزملاء والفنانون :

قراءة : أحمد فراج

تصوير : محمود حسن

الموسيقى التصويرية : فؤاد الظاهرى

إخراج : محمود فريد

مونتاج : عاطف صبرى

استجابة وإحرام :

إلى خير أرض الله ، وأحب أرض الله إلى الله ..

إلى البلد الأمين الذى قال فيه محمد عليه الصلاة والسلام :

إن هذا البلد حرام، حرمه الله يوم خلق السموات والأرض ، فهو حرام حرمه الله إلى يوم القيامة ..

إلى المسجد الحرام الذى تتجه إليه ملايين القلوب المؤمنة ، كل يوم خمس مرات ..

يتوجه الحجيج كل عام ..

ومن جوار البيت العتيق منذ آلاف السنين ، ارتفع صوت إبراهيم عليه السلام مناجيًا ربه :

(رَبَّنَا إِنِّى أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِى بِوَادٍ غَيْرِ ذِى زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ ، رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلاَةَ ، فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِى إِلَيْهِمْ ، وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ) .

وكانت الاستجابة عبر الأزمان .

(إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِلْعَالَمِينَ ، فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ ، وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِناً وَلِلهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً ، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غَنِىٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ) .

البيت الذى رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل ودعوا عنده ربهما:

(رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ، رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ، وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ).

فكانت هذه الأمة المسلمة استجابة لدعوة خليل الرحمن ، تحن قلوبها إلى بيت الله ، وتعمره بالطائفين والعاكفين والركع السجود .

الطواف :

وحين تطوف محرماً تتجرد مما يتفاخر به الأفراد ويتكاثرون ..

فثياب الإحرام صورة من صور الإخاء الإنسانى ، والمساواة التى ترتفع فوق الجنس واللون والمكانة الاجتماعية .

وتطوف سبعة أشواط ، بادئاً من الحجر الأسود ، تقبله بدون مزاحمة ، أو تستلمه أو تشير إليه ، مسرعاً فى الأشواط الثلاثة الأول إن استطعت، داعياً بما شئت ، وأفضل الدعاء ما أثر عن النبي عليه الصلاة والسلام :

(رَبَّنَا آتِنَا فِى الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ).

هذه الحركة الدائرية حول الكعبة لها نظائرها فى الكون كله بكواكبه وذراته ، بقوانينها التى تطوف بها وتدور ، وكذلك الطواف حول الكعبة منسك يقوم به الحاج امتثالا لأمر ربه .

ويطوف المحبون حول بيت ربهم ، الذى يحبهم ويحبونه فى مطاف واحد لا يتميز فيه حاكم عن محكوم .

مقام إبراهيم وزمزم :

فإذا فرغت من طوافك ، توجهت إلى مقام إبراهيم : « واتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى » ،وصليت ركعتين سنة الطواف ، ثم شربت من ماء زمزم ، البئر التي ارتبط تاريخها بقصة هاجر وولدها إسماعيل عليهما السلام .

السعي :

وتذهب بعد هذا إلى جبل الصفا ، وترقى درجاته ، وتنظر إلى البيت العتيق تالياً قوله تعالى : (إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ) ، ثم تسعى بينه وبين المروة مسرعاً فى بطن الوادى إن استطعت ، ولغير القادر أن يسير ، أو يحمل إذا عجز عن السير .

وفى السعى ترتفع الدعوات والابتهالات إلى الله :

لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده ، صدق وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده .

ترتفع بها الأصوات فوق الصفا والمروة ، وبين ذلك يدعون بما شاءوا ..

وفى السعى تعمق فى نفسك المعانى التى اكتسبتها من الطواف .. فحولك إخوة من كل أقطار الأرض ، ومن كل الأعمار .. أطفال صغار تحملهم أمهاتهم وآباؤهم . شباب ممتلئ بالقوة والحيوية ، كهول يتحركون فى أناة .. شيوخ يسعون محمولين ، وملء القلوب إيمان ورضا . . أجناس متعددة ، وجوهر إنسانى واحد ، وبين هذين الجبلين

وردت الآثار بسعى هاجر بحثاً عن الماء لصغيرها إسماعيل ، واستجاب الله دعاءها فنبع الماء من زمزم .

وبقوة الإيمان ، أتت قلوب مؤمنة من أقصى الأرض ، وجاء الوادى الجديب ، وسعى بين الصفا والمروة ، ملايين يذكرون الأم المسلمة ، العزلاء إلا من إيمانها وإلى جوارها الصبى الصغير .

بعد السعى :

فإذا فرغت من السعى ، انتهت بذلك المناسك فى مكة قبل التوجه إلى منى وعرفات .

وبعد السعى تتباين أعمال الحاج ، حسب نية إحرامه ، من كان محرماً بالحج وحده ، أو قارناً بين الحج والعمرة ، استمر على إحرامه حتى يتم مناسك الحج جميعاً .

ومن كان محرماً بالعمرة وحدها ، تحلل من الإحرام وعليه أن يقدم هدياً ، وعلى غير القادر الصوم .

يوم التروية :

فإذا كان يوم التروية ، أحرم بالحج ، من موضعه الذى ينزل فيه ، وتوجه إلى منى ، مكثراً من الدعاء والتلبية .

ويسمى اليوم السابق للوقوف بعرفات يوم التروية ، لأن الحجيج كانوا يروون أنفسهم ويتروون من الماء ، فتلك الأماكن لم يكن فيها إذ ذاك آبار ولا عيون ، أما الآن فقد كثر فيها الماء واستغنى الجميع عن حمله .

والسنّة أن يتوجه الحجيج إلى منى يوم التروية .

عرفات :

وفى صبيحة اليوم التالى – وهو التاسع من ذى الحجة – يتوجهون إلى عرفات .

وللموقف فى عرفات عبرته الكبيرة ..

فقريش فى الجاهلية كانت تقف فى المشعر الحرام عند المزدلفة بين منى وعرفات ، ذلك لأن المشعر الحرام من الحرم ، أما عرفات فخارج حدوده . وبهذا كان للناس فى الجاهلية موقفان : الناس جميعاً عدا قريشاً فى عرفات ، وقريش ومن كان على دينها يقفون فى المشعر الحرام ويقولون : نحن أهل بيت الله فلا نخرج من الحرم ..

وظنت قريش أن الرسول فى حجه سيقف عند المشعر الحرام ، كما كانت تفعل هى فى الجاهلية ، ولكن الرسول تابع سيره إلى عرفات فصارت الموقف ، يتساوى فيه المسلمون جميعاً إلى يوم الدين .. وعلى هذه الأرض المباركة ، وفى هذا اليوم المشهود ، يوم الحج الأكبر يجتمع من المسلمين أكثر من مليون فى صعيد واحد ..

أليس فى هذا تلخيص لقصة الحياة ، إقامة موقوتة ثم رحيل ..

– فى هذا اليوم استمعت الدنيا إلى صوت النبى :

« إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، فى شهركم هذا ، فى بلدكم هذا . ألا هل بلغت ، اللهم اشهد ،

« فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من ائتمنه عليها .

« ألا كل شىء من أمر الجاهلية تحت قدمى موضوع . ودماء الجاهلية موضوعة .

« وربا الجاهلية موضوع .

« اتقوا الله فى النساء فإنكم أخذتموهن بأمان الله .

« تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به : كتاب الله .

« أيها الناس . إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد . كلكم لآدم وآدم من تراب .

« أكرمكم عند الله أتقاكم . وليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى .

« وأنتم تسألون عنى فما أنتم قائلون ؟

« قالوا : نشهد أنك قد بلّغت وأدّيت ونصحت .

فأشار بأصبعه إلى السماء وإلى الناس قائلا : اللهم اشهد . . اللهم اشهد .. اللهم اشهد ..

— ثم أذن مؤذن فصلى الظهر والعصر ، ولم يصل بينهما شيئاً ..

وركب ناقته حتى أتى الموقف عند الصخرات .. واستقبل القبلة واقفاً .. حتى غربت الشمس فتوجه إلى المزدلفة ..

— وفى هذا الموقف عند الصخرات ترى عرفات وقد برز فوقه جبل الرحمة وقد اختفت الصخور والسفح تحت غطاء بشرى .. ترتفع منه أيد ضارعة داعية .. كأنها أغصان مؤمنة . . حفيفها دعوات تصاعد إلى الله بكل لسان ..

وأنت تدعو فى عرفات مؤمناً بقبول الله دعاءك فى هذا الجمع الطاهر الذى ضمته جوانب الجبل ، من مشارق الأرض ومغاربها

نفوس فرغت إلى دعاء ربها ..

ودموع التوبة تغسل ذنوبها ..

والحج المبرور ، يطهّر الإنسان من ذنوبه كيوم ولدته أمه .. هو ولادة جديدة للإنسان ، تشابه ولادته الأولى فى الطهر ، وتختلف عنها فى عمق التجربة ووضوح الرؤية .

والشمس تميل إلى الغروب ، ويرتفع معها الدعاء والابتهال فى اللحظات الأخيرة من يوم عرفات ..

المزدلفة :

وفى الإفاضة من عرفات تتدفق هذه الجموع الهائلة فى اتجاه واحد إلى المزدلفة ، وفيها يقضى الحجيج ليلهم . . ويصلون المغرب والعشاء . . فإذا ما جاء الفجر ، صلّوه ، ثم توجهوا إلى منى بعد جمع الحصيات لرمى الجمار . .

وتتناثر على جانبى الطريق هنا وهنالك ، جماعات مؤمنة من الركع السجود ، هم صورة حية لقول الله تعالى :

(تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ ، يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفاً وَطَمَعاً وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ ، جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) .

منى وأيامها :

— وفى منى يرمى الحاج جمرة العقبة يوم النحر (العاشر من ذى الحجة) ثم يذبح هَدْيَه ويحلق شعره أو يقصره ويلبس ثيابه . .

وهذا هو التحلل الأصغر . .

فإذا طاف طواف الإفاضة ، حل له كل شىء ، وهذا هو التحلل الأخير . .

وللحاج أن يبقى فى منى بعد يوم النحر يومين أو ثلاثة ، يرمى كل يوم الجمرات الثلاث ، مبتدئاً بالجمرة القصوى ثم التى تليها ثم جمرة العقبة . كل جمرة بسبع حصيات . . يكبر مع كل حصاة ، ويقف داعياً ذاكراً . .

ورمى الجمرات كأى منسك من مناسك الحج ، لابد أن يحدده مكان وزمان وعدد مبين ..

ونذكر حين كنا فى الكعبة ، كيف طفنا حولها داعين ، واستلمنا الركنين اليمانيين ، وقبلنا الحجر الأسود ، وهنا نرجم حجراً ، رافعين صوتنا بالتلبية والتكبير ، وما الإيمان ؟ إنه الحب والبغض ، أن تحب مادعاك الله إلى حبه ، وأن تبغض ما دعاك الله إلى بغضه ..

وهنا فى الرجم التعبير العملى عن الإيمان الذى لا يحركه إلا أمر الله . وأنت حين تقذف هذه الحجارة الصغيرة ملبياً ربك ، تقوم بمنسك يشترك فيه القلب واليد واللسان .. أنت بهذا ترجم الخطيئة والإثم ..

فى الرجم روح الحج : عبادة تستغرقك جميعاً .. قلبك ويدك ولسانك .. عبادة فيها الجهد المحسوس تعبير وتصديق للإيمان الكامن ..

وهو ما نقوم به فى صلاتنا : عبادة يشترك فيها القلب والجوارح واللسان ..

وفى منى تجتمع الوفود الإسلامية ، ولايزال من الممكن الاستفادة من هذه الأيام ، فى توثيق الروابط والنظر فى القضايا المشتركة ، ويبدو فى منى تعاون الحكومات والشعوب الإسلامية فى رعاية الحجيج وتوفير الخدمات لهم بروح سمحة ، وتبادل الزيارات بين الوفود فى جو أخوى كريم ..

وأنت حينما تنحر ما قدمته من من هَدْى تذكر قول الله تعالى: (لَنْ يَنَالَ اللهُ لُحُومُهَا وَلَا دِمَاؤُهَا وَلَٰكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ) . وفى هذا تعظم شعائر ربك : (ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) .

وأيام منى ليس فيها من المناسك إلا رمى الجمرات والنحر وطواف الإفاضة إن نزلت مكة ..

ومنى واد بين جبلين ، شهد صبر الرسول الأعظم ينتقل وحيداً بين القبائل يدعو إلى الله ، وشهد بيعة العقبة مع الأنصار ، ومن بعد ، حجة الوداع .

— وفى الحج تغطى منى خيام الحجيج .. تنتقل بينها قاوب مؤمنة تقطع الليل تسبيحاً وقرآناً ..

وكأن الوادى والجبال الجرداء حولك قد نبت عليها نبات بشرىّ لا يضرب جذوره فى الأرض وإنما يستمد حياته من السماء ..

إن كل شىء من حولك قريب حبيب .. ومن فوقك سماء تلمع فى ليلها النجوم ، وأصوات الدعاء تتردد بين المضارب والدور فى فرحة العيد الأكبر .

حياة يتدفق بها واد كان منذ أيام قاعاً صفصفاً ، ثم إذا تركه الحجيج عاد إلى سكونه حتى العام الذى يليه ..

إلى مكة :

وتستعد للرحيل من منى إلى مكة .. وتذكر تحركات هذه الجموع الكبيرة إلى عرفات ..

— أكثر من مليون من البشر يتحركون فى توقيت دقيق على اختلاف ألسنتهم وألوانهم وقدراتهم ..

— وتستطيع أن تسائل نفسك عن الجهد والعناء الذى يلقاه قائد — أى قائد — يريد أن يحرك هذه الجموع الضخمة مع كل ما بينها من فروق القدرة واللسان والوطن .

— ليست هناك قوة تستطيع أن تفعل هذا إلا قوة الإيمان ..

– قوة تنشئ مدينة كاملة فى عرفات تعمرها نهاراً . . ثم تقضى ليلها فى المشعر الحرام . فإذا طلع الصباح كانوا فى منى ..

– وأوامر ينفذها الفرد مستجيباً لها فى أى وقت من ليل أو نهار ، ليس عليه من رقيب إلا الإيمان ..

– هذه الطاقة المؤمنة تستطيع أن تفعل للإنسانية الكثير لو وجدت مسالكها السليمة إلى التعبير ، وتوحدت من أجل الحق والخير .

طواف الإفاضة وطواف الوداع :

– ويبارح الحجيج منى ، ويؤمون المسجد الحرام طائفين طواف الإفاضة سبعة أشواط . وذلك لمن كان محرماً بالحج أو قارناً ، أما المتمتع فعليه طواف وسعى .

فإذا عزموا الرحيل ، عادوا إلى البيت يطوفون به طواف الوداع ، داعين الله أن يجعل حجهم مبروراً ، وذنبهم مغفوراً ، وأن يكتب لهم العودة إلى بيته المحرم .

– ويتحرك بنا الركب إلى يثرب « مدينة الرسول » ذاكرين قول النبى عليه الصلاة والسلام : « لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى » .

إلى المدينة :

– ويقودنا الطريق من مكة إلى جدة .. ثم نتجه شمالا مجاورين البحر حتى ندرك أرض بدر حيث دارت المعركة الأولى بين الحق والباطل. ونصر الله جنده مع قلة عَدَدهم وعُدَدهم على الباطل المتجبر .. وثوى فى أرض بدر شهداء الجهاد الذين بذلوا أرواحهم من أجل إعلاء كلمة الله ...

فى المدينة :

– ويقترب بنا الطريق من المدينة وتلوح مآذن المسجد النبوى ، القبة الخضراء ، فوق قبر النبي عليه الصلاة والسلام .

– وتتزاحم فى الذهن ذكريات الماضى والشوق إلى المصطفى عليه الصلاة والسلام .. تذكر النبي فى طريق الهجرة ، حين كان آوياً إلى الغار ليس معه إلا ربه وصاحبه وصوت القرآن يردد :

(إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ ، إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِىَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى الْغَارِ ، إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا) .

تذكر كيف جاء المدينة وكان أهلها مختلفين فآخى بينهم .. وكان يخاطبهم ويقول : « لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ».

وكيف آخى بين المهاجرين والأنصار ، وسجل الله ذلك الحب المقيم بينهم فى كتابه فقال :

(وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ) .

– تذكر كيف بدل المدينة من تفرقها وحدة . . ومن تنازعها تماسكاً وتعاوناً على البر والتقوى ..

– تذكر كيف وقفت المدينة تدافع عن الإسلام .. ترد كيد

المعتدين .. تودع شهداءها بالإيمان والتسليم .. وتستقبل وحى السماء باليقين والتنفيذ .. فخرج من مسجد المدينة جيل من المؤمنين نشروا أعلام الحق .. وتتابعت منها الموجات النورانية يدفعها الإيمان .. فكانوا رحمة من الله مهداة ..

— وتسير فى طرقات المدينة وما حولها . فتحس أمجاد الماضى وأعباء الحاضر وواجبات المستقبل .. مسجد قباء .. المسجد الذى أسس على التقوى .. جبل أحد أرض المعركة .. قبر حمزة .. سيد الشهداء .. هذه الأرض الطيبة التى احتضنت الرسالة والإيمان .

سارت أجيال وأجيال ، والتقى الماضى بالحاضر فوقها ..

سار النبى وصحابته المباركة .. وارتفع صوته بالقرآن ، وانتظمت من خلفه صفوف الصلاة تضم الصفوة التى اختارها الله لصحبته ..

هنا تنزل الوحى والقرآن .. وصعد الكلم الطيب والعمل الصالح ..

فى هذه الأرض الطيبة جمع الله قلوب البشر على الحب والخير فى باقة إنسانية علـّمت الدنيا كيف ترتفع فوق فروق الجنس واللون ، وكيف تعد المال وسيلة للرقى بالحياة بدون أن يستذل الإنسان ويطغيه ويفرق بين الأخ وأخيه ..

هنا عاش الخلفاء الراشدون .. أبو بكر وعمر وعثمان وعلى ..

هنا عاش الإسلام تاريخاً نابضاً بالحياة ..

استهدف الإسلام الوحدة الإنسانية المؤمنة التى نجدها فى قول الله تعالى ، وانتشر برسوله نور الحق بعد ليل الظلام .. وارتفع به صوت الإيمان ..

(يَاأَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَدَاعِياً إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُنِيرًا . وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُمْ مِنَ اللهِ فَضْلاً كَبِيرًا) .

صلى الله عليك يا رسول الله ، أنت الرحمة المهداة ..
عنك نأخذ مناسكنا كما علمتنا ..

(رَبَّنَا إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِياً يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ آمِنُوا بِرَبِّكُمْ فَآمَنَّا ، ربنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ . رَبَّنَا وَآتِنَا مَا وَعَدْتَنَا عَلَى رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ الْمِيعَاد) .

الفصل الثالث

الإسلام والعلم

منهج الدراسة :

١ ـ لعل من الأفضل أن نبدأ أولا بتحديد مفهوم الإسلام ومدى شموله ، مستندين فى هذا إلى نصوص من القرآن الكريم والسنة النبوية ، وننتقل بعد هذا إلى مفهوم العلم فى الإسلام ومدى شموله ومجالات بحثه . وعلى أساس من هاتين النقطتين نستطيع أن نتابع البحث إلى مكانة العلم فى الواقع الإسلامى وعلاقة العلم بالمجتمع ، ثم ننتهى إلى دراسة القوانين العلمية ومكانتها من الفكر الإسلامى مع نماذج تطبيقية على ذلك .

وفى عرض وتحليل هذه النقاط سنذكر أهم مراجعها ليستطيع ـ من شاء ـ متابعة البحث والتعمق فيه .

أولا ـ تكامل الإسلام

٢ ـ هناك أركان ثلاثة تشترك فيها الأديان وهى : الإيمان بالله، وبالجزاء فى الآخرة، والعمل الصالح فى الدنيا[1]. وهذه الأركان الثلاثة تجمعها الآية الكريمة :

(إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)[2] .

---

(١) فى أصول الأديان يراجع : السيد محمد رشيد رضا : الوحى المحمدى ٤٤ ـ ٤٥ . والكتاب من أفضل ما كتب عن أهداف الإسلام .

والصابئون فى الآية معناها من خرجوا من دين إلى دين .

(٢) سورة البقرة : ٦٢ .

٣ – ومع وجود تباين فى تفاصيل العمل الصالح – بنوع خاص – ومدى العناية بالجزاء الأخروى ، وتصور أهل الأديان للإيمان بالله وصفاته، فإن هذه الأصول الثلاثة تتكامل معاً ويقوم عليها صرح الدين . ويمثل الإيمان بالآخرة ما يمكن أن نسميه بالامتداد الزمانى فى الفكر الدينى الذى يعرض لقصة البشرية من نشأتها إلى غايتها فى إجمال وإيجاز .

٤ – ويتكامل معه فى الإسلام شمول موضوعى يغطى مجالات الحياة جميعاً . ونحن إذا قرأنا القرآن وجدناه فى السورة الواحدة يذكر أموراً تتعلق بخلق الإنسان وأموراً تتعلق بالجزاء ، وأموراً تتعلق بالحياة اليومية فى مناشطها المتنوعة : اجتماعية واقتصادية وسياسية . وينتقل من موضوع إلى موضوع ، كما تتتابع هذه الموضوعات فى حياة الفرد اليومية . من أجل ذلك لا تنقسم سور القرآن على أساس موضوعى ، وإنما تتجمع الموضوعات وتتفرق ، كما يحدث فى حياتنا اليومية : ننتقل من مشكلة سياسية إلى اقتصادية إلى بحث علمى إلى شىء من طعام وشراب. فالوحدة هنا « وحدة حيوية » إذا جاز لنا أن نستخدم هذا التعبير فى هذا المقام . ويبدو هذا التفاعل الحيوى بين الفرد والقرآن إذا ذكرنا أننا نقرأ القرآن فى الصلاة – وهى عماد الدين – فننتقل فى قراءتنا – ونحن بين يدى الله – بين قضايا اجتماعية وسياسية واقتصادية وأحداث تاريخية وعقائد تتعلق بالله والآخرة ... فالمزج بين الدنيا والآخرة يتكامل هنا مع المزج بين قضايا الحياة على تنوعها واختلافها .

٥ – وثمة تكامل ثالث يضم الأديان جميعاً ، والمسلم بنص القرآن مطالب بتصديق الأنبياء جميعاً : (قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ. وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ

مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)(١) .

٦ ــ وهناك تكامل رابع يتمثل فى شمول الدعوة الإسلامية ، وأنها لا تقتصر على جنس دون جنس ، أو عنصر دون عنصر ، وأنها تنظر إلى الإنسان فى جوهره الواحد ، وترد التفاضل إلى التقوى . وفى هذا يقول الله تعالى : (يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ، إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ)(٢) .

وإلى هذا الأصل العريض من المساواة الإنسانية أشار الرسول عليه الصلاة والسلام فى خطبة الوداع فقال : « أيها الناس ، إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، كلكم لآدم ، وآدم من تراب ، أكرمكم عند الله أتقاكم ، وليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ، ألا هل بلغت ، اللهم اشهد . قالوا . نعم . قال : فليبلغ الشاهد الغائب (٣) » . وعبر الرسول عن هذا الشمول الإنسانى تعبيراً عملياًّ حين وصف بعض صحابته فقال : « أنا سابق العرب ، وصهيب سابق الروم ، وسلمان سابق الفرس ، وبلال سابق الحبش(٤) » . وقوله : « أنا رسول من أدركت حياًّ ومن يولد بعدى(٥) » .

---

(١) سورة البقرة : ١٣٦ .

(٢) سورة الحجرات ١٣ .

(٣) أحمد زكى صفوت : جمهرة خطب العرب ١ : ٥٩ .

(٤) السيوطى : الجامع الصغير ١ : ١٠٧ وميزة هذا المرجع أنه يرتب أوائل الأحاديث الشريفة بحسب حروف المعجم .

(٥) المرجع السابق نفسه .

ثانياً – تكامل العلم فى الإسلام

٧ – ومن الطبيعى أن نجد فى نظرة الإسلام إلى العلم التكامل نفسه الذى رأيناه فى النظرة الكلية للإسلام . . . فالإيمان بالله فى الإسلام « علم » ، والإيمان بالآخرة « علم » ، والذين يعرفون أمر العمل الصالح فى الدنيا هم أهل « علم » . ويشرح الأصفهانى العلم فيقول : « العلم إدراك شيء بحقيقته » ، ثم يقسمه إلى نوعين : « أحدهما إدراك ذات الشيء، والثانى الحكم على الشيء بوجود شيء هو موجود له أو نفى شيء هو منفى عنه ». والمقصود من تقسيم الأصفهانى[١] أن الأول يقصد به معرفة ذات الشيء، والثانى معرفة دليل يحكم به على الشيء سواء أكان دليل نفى أم إثبات . ثم يقسم العلم مرة أخرى إلى قسمين : عقلى وسمعى أو عقلى ونقلى . وفى الموضوع تفصيل كثير[٢] كل ما يهمنا منه الآن فى هذه المرحلة من الدراسة أن العلم فى الإسلام شامل لأمر الدنيا والآخرة ، وأنه يشمل العقيدة كما يشمل الشريعة . . وبهذا المفهوم الواسع نستطيع أن ندرك المقصود من العلم فى القرآن والسنة . ولنذكر بعض نماذج على ذلك :

(ا) ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[٣].

---

(١) الراغب الأصفهانى : المفردات فى غريب القرآن ص ٤٨ ؛ وهذا الكتاب معجم لمفردات القرآن مرتب أبجدياً مع شرح لمعانيها فى آيات القرآن .

(٢) المرجع السابق نفسه .

(٣) سورة آل عمران : ١٨ .

وتعد هذه الآية أجل شهادات القرآن على الإطلاق ، فإنها صدرت من الله وملائكته وأنبيائه وأهل « العلم » على القضية الكبرى في الإسلام وهي توحيد الله وقيامه بالقسط ، ويتضمن ذلك الشهادة على جميع أحكام الشرع وأحكام الجزاء .

يقول القرطبي في تفسيره (٢ : ٤١) تمجيداً للعلم : لو كان شيء أشرف من العلم لأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسأله المزيد منه كما أمره أن يستزيد من العلم (وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْماً) ، وقول النبي : « العلماء ورثة الأنبياء » و « العلماءَ أمناء الله على خلقه » .

(ب) (اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ . اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ . الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ . عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ)[1] .

فأول أمر جاء الرسول : اقرأ ، وأول آلة وأداة ذكرها الله وأقسم بها : القلم في ثاني سور القرآن نزولا وهي سورة « ن » ، وفي هذا أعظم تمجيد للكلمة المنطوقة والمكتوبة .

(ﺣ) (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ)[2] .

(د) (وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً)[3] .

---

(١) سورة العلق : ١ — ٥ .

(٢) سورة فاطر : ٢٨ .

(٣) سورة النساء : ١١٣ .

ومن هذه الآيات يبدو الترابط القوى بين جوانب المعرفة الإنسانية مادية وروحية . بحيث نستطيع القول بأن الإسلام ينادى « بوحدة المعرفة » وتكاملها فى الوقت نفسه .

٨ — ولقد فطن علماء الإسلام إلى اختلاف مصادر المعرفة الإنسانية ومستوياتها .. فميز بعضهم بين ثلاثة مستويات علمية [١] .

(ا) المستوى الأعلى أو العلم الأعلى ، وهو علم الدين الذى لا يجوز لأحد الكلام فيه بغير ما أنزله الله فى كتبه وعلى ألسنة أنبيائه صلوات الله عليهم نصاً .

(ب) العلم الأوسط ، وهو معرفة علوم الدنيا التى تكون معرفة الشىء منها بمعرفة نظيره ، ويستدل عليه بجنسه ونوعه كالطب والهندسة .

(حـ) العلم الأدنى ، وهو الأعمال القائمة على تدريب الجوارح .

وبعبارة أخرى : ميزوا بين علوم مصدرها الوحيد هو الوحى ، ويعين عليه الاستدلال العقلى ، وعلوم تعتمد أكثر ما تعتمد على الجهد العقلى ، ولنشاط الإنسان فيها مجال كبير ؛ وعلوم تعتمد أكثر ما تعتمد على الجهد البدنى والتدريب اليدوى .

والواقع أن الأقسام متداخلة .. فالطب وبخاصة الجراحة مثلا تعتمد اعتماداً كبيراً على الفكر والمهارة اليدوية معاً . ومع تقدم المجتمع تصبح العلوم التدريبية محتاجة إلى مهارات أكثر . وهذه لابد لها من أساس عقلى وإعداد دراسى . والفكر واليد يتعاونان معاً فى تنفيذ أمر الله بعمارة الكون والرقى بالحياة .

---

(١) ابن عبد البر القرطبى الأندلسى . جامع بيان العلم وفضله ٢ : ٢٨ ، والكتاب من خير ما كتب فى منزلة العلم فى الإسلام والصفات التى ينبغى توافرها فى العالم فى التحصيل والعلاقة بالمجتمع .

وللعلماء تقسيمات غير هذه .. وإنما الذى يعنينا من هذا التقسيم الذى أورده ابن عبد البر القرطبي أنه يجمع بين علوم الدين والدنيا ، وأنه مع تعدد التقسيمات يضم باستمرار – فيما أعلم – هذه الأقسام جميعاً .

٩ – ومن هنا نجد التفاعل قوياً بين العقيدة والشريعة فى الإسلام ، وبين الإيمان والعلم ، وإذا عدنا إلى الآية الكريمة :

(إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) وطالعنا ما قبلها رأينا هذه الوحدة الفكرية بين الايمان والعلم فى قوله تعالى :

(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ . . . وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ ، إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ)(١). فى الآية إشارات إلى الظاهرات الجوية والنبات والصخور والناس والحيوان ، وهى رءوس موضوعات أصبح كل منها علماً كاملا ، بل مجموعة علوم مادية بحتة ، وتضمها الآية الكريمة ، وتربط بينها وبين خشية الله ، وتؤكد حقيقة كبيرة هى أن العلم طريق إلى معرفة الله وخشيته ، وأن مطالعة آياته تزيد الإنسان إحساساً بعظمة الله وقدرته .

١٠ – وانعكس هذا – كما سنرى – على تاريخ الإسلام فكانت الروابط قوية بين الدين والعلم . فالدين يدعو إلى العلم ، والعلم يؤكد

---

(١) سورة فاطر : ٢٧ ، ٢٨ .

الدين . ولم نشهد فى تاريخ الإسلام بعامة خصومات عنيفة كالتى شهدتها أوربا بين العلم والدين ، إلا فى حالات معروفة أكثرها يتعلق بالعقيدة ، وعرضها يخرج بنا عن خط البحث الذى نحن بسبيله .

ثالثاً — العلم فى المجتمع الإسلامى

١١ — أول ما يسترعى الانتباه تمجيد القرآن العلم ، وضخامة هذه المادة فى القرآن . بحيث إنها وردت هى واشتقاقاتها نحو ٨٨٠ مرة[١]. هذا الرقم الذى يقرب من الألف يعطينا وحده فكرة عن مكانة هذه المادة فى الإسلام ، والوثبة الجبارة التى وثبها بالفكر الإنسانى حاملا معه التراث القديم من الصين والهند وفارس واليونان والرومان . فى الوقت الذى تنكرت فيه أوربا لهذا التراث ، وحفظه للأجيال التالية فى أمانة وسعة أفق .

١٢ — وإذا كان الوحى مصدر القسم الأول أو الأعلى من العلم فإنه — أى الوحى — تعرض أيضاً لجوانب من القسمين الأوسط والأدنى : أعنى العلوم المعتمدة على العقل ، والمعتمدة على التدريب فى طابعها العام . أما عن مدى الإجمال والتفصيل فى هذين القسمين فموضوعهما بحث مقبل عن الإسلام والتطور ، ويكفى أن نشير الآن إلى أن العلم بمعناه الشامل كان أمراً قائماً فى فجر الإسلام وازدهاره . ولم يكن من الغريب أن يبدأ العالم بالعلوم النقلية (علوم الشريعة) ويتابع سيره فيها ، أو يتخصص بعد هذا بالعلوم العقلية أو جانب منها .. وهو فى متابعته علوم الشريعة أو فى

---

(١) فى حصر ألفاظ القرآن وإحصائها وترتيبها أبجدياً وأماكن ورودها فى الآيات يرجع إلى : محمد فؤاد عبد الباقى : المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم. وفى مادة « علم » يرجع إلى الصفحات ٤٦٩ — ٤٨١ .

تخصصه بعلم عقلى . . بل بجمعه بين هذا ومهنة أخرى يحترفها ، لم يكن فى شىء من هذا يشعر أنه يخرج عن الخط الفكرى العام فى المجتمع الإسلامى .

١٣ — وشهد الفكر الإسلامى شخصيات موسوعية أخذت بأطراف علوم كثيرة عقلية ونقلية ، وتركت فى المكتبة الإسلامية تراثاً ضخماً ، وشخصيات غلب عليها التخصص بعلوم محدودة ، وسادتها جميعاً نظرة تجمع بين الدين والعلم المادى — فى وحدة متسقة[1] .

١٤ — وقد يبدو من التناقض أن يجمع العالم بين التصديق المتمثل فى الوحى والبحث العلمى الموضوعى كما يبدو فى العلوم العقلية ، ولكن النظرة الإسلامية تعدّ « الوحى » أشرف مصادر المعرفة وأعلاها ... وتعدّ الخبر الذى يأتى من الله أولى بالتصديق من الخبر الذى يأتى من إنسان . ومن هنا نجد أن « الغيب » الذى نصّ عليه القرآن ، هو فى العقيدة الإسلامية « علم » بالمفهوم الإسلامى . وبهذا نستطيع أن نفهم قوله تعالى :

(إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى الْأَرْحَامِ ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ) (٢) . فهذه إذا كانت فى ذاتها

---

(١) هناك مراجع كثيرة عن الحضارة الإسلامية منها مجموعة أحمد أمين : فجر الإسلام وضحى الإسلام وظهر الإسلام . وعباس محمود العقاد : أثر العرب فى الحضارة الأوربية ، وآدم متز : الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع الهجرى ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة . وقد نشرت هيئة اليونسكو (الشعبية القومية بالجمهورية العربية المتحدة) كتاباً ممتازاً فى هذا المجال هو : الدليل الببليوجرافى للقيم الثقافية العربية : مراجع للدراسات العربية — نوفمبر ١٩٦٥ . .

(٢) سورة لقمان : ٣٤ .

« علماً » فإن معرفة الإنسان ببعضها — فى التوقيت والمدى — راجع إلى إرادة الله . وإلى هذا تذهب الآيات الأولى من سورة البقرة التى تصف المؤمنين : (ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ) . وتتابع الآيات لتبين أن فضيلة الإنسان الكبرى هى العلم كما تمثله الآية الكريمة (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا) ، ثم تجعل الوجود كله هدى « للعالمين » و « لقوم يتفكرون » و « لقوم يسمعون » و « لقوم يعقلون » . فالحواس هنا غير منفصلة عن التصديق القلبى ، بل هما طريقان للمعرفة والعلم كما تبين هذا الآية الكريمة : « وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا . . .)[1] .

١٥ — والاتجاه العلمى الذى يدعو إليه القرآن هو التعرف على الإنسان والكون بحسبانهما مجالات البحث التى تبدو فيها آيات الله وتوضحها الآية الكريمة : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)[2]. وإذا شئنا تفسيراً لهما كان : الطبيعة والنفس . . وبعبارة أخرى : الكون المادى والمجتمع البشرى .. وينقلنا هذا إلى دراسة قوانين هذين المجالين وما جاء بشأنهما فى القرآن الكريم والسنة النبوية وبعض جهود علمائنا فى هذا المجال .

(١) سورة الإسراء : ٣٦ . (٢) سورة فصلت : ٥٣ .

رابعاً ــ القوانين العلمية

دراسة مقارنة :

١٦ ــ يلفتنا القرآن الكريم إلى التأمل فى الوجود ودراسته دراسة لا تقتصر على البيئة المحلية التى يعيش فيها الفرد ، وإنما تشمل ما استطاع من بيئات أخرى . وفى هذا يقول الله تعالى :

(ا) (قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلُ)[١] . ويتكرر هذا التوجيه الربانى فيكون من الأسباب الرئيسية وراء الرحلات التى بلغت ذروتها برحلة ابن بطوطة الطنجى ، وسجلت رقماً قياسيًّا لم يسبقه فيه رحالة آخر قبل عهد البخار (٧٥,٠٠٠ ميل) .

(ب) ويلفتنا إلى مظاهر الكون وما فيها من دقة ونظام فيقول : (وَآيَةٌ لَهُمُ اللَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلِمُونَ . وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ

---

(١) سورة الروم : ٤٢ .

الْقَدِيمِ . لاَ الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلاَ اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) [1] . واضح كنموذج — من قول الله تعالى : « وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ » ما يجب على الفرد من محاولة معرفة هذه المنازل ، وكيف اهتدى بها الإنسان إلى معرفة « عدد السنين والحساب »[2] .

فالقوانين الطبيعية المتعلقة بالمادة فى هذا الكون جاء بها القرآن الكريم فى وضوح .

١٧ — وقد يكون من الأفضل فى هذه المرحلة من البحث ، ونحن بصدد القوانين العلمية ودراستها على أساس مقارن ، أن نذكر مفهوم العلم الحديث ونرى أين يلتقى وأين يختلف مع المفهوم الإسلامى .

فى الاستخدام العادى المعاصر تطلق كلمة « علم » على مجموعة متنوعة من الأنظمة أو المناشط العقلية لها مميزات خاصة تجمع بينها . وهذا التعريف — فى شموله — لم يبدأ بتحديد شكلى . وهذه الأنظمة — التى نطلق عليها الآن علوماً — بدأت مستقلة بعضها عن بعض ، تستجيب كل منها لحاجة معينة . ثم بينت الملاحظة أن بعضاً من هذه الأنظمة له ملامح خاصة مشتركة تكفى لأن نضمها كعالم واحد . وفى استخدام هذه الأنظمة لا نجد اتفاقاً بين الباحثين على عد بعضها علوماً وإنما عليها خلاف سنعرض له بعد قليل . ومن أمثلة ذلك علوم الاجتماع والتاريخ .

---

(١) سورة يس : ٣٧ .

(٢) سورة الإسراء : ١٢ .

ومن أهم ما يمتاز به العلم إمكان الوصول فيه إلى نتائج محددة يمكن أن تخضع لنوع من الاختبار والبرهنة . ويقتضى هذا أن المواقف أو التجارب التى ندرسها فى العلوم يمكن أن نعيدها مرة أخرى لنخضعها للاختبار ، وإن كان هذا الشرط لا ينطبق على كل الأحوال . فهناك علوم تقوم على الملاحظة كالفلك والجيولوجيا حيث لا يمكن إعادة الحالة أو الموقف الذى ندرسه مرة أخرى . وحيث يقتصر التحديد الدقيق على دقة الوصف .

وإذا كان من الممكن تقسيم العلوم إلى وصفية ومضبوطة descriptive and exact فإن الفارق الرئيسى بينهما هو دقة القياس ، فالقسم الأول يضم الفيزيقا (الطبيعة) والكيمياء ويتمثل — وإن كان بدرجة أقل — فى النبات والحيوان . وهذا القياس يقوم — أساساً على الأرقام والوصف . وكلما كان اعتمادنا على الأرقام أكثر ، كانت درجة الدقة فى الدراسة أعلى ، ولو أمكننا — بالتالى — إعادة الموقف الذى ندرسه أو التجربة لخرجنا بالأرقام والنتائج نفسها . والأنظمة العلمية التى يمكن إخضاعها للقياس الدقيق يمكن أيضاً أن تخضع للتحليل الرياضى . وهذه الإمكانية من أهم مميزات العلوم المضبوطة . أما العلوم الوصفية فأهم ما تقوم به أن تكون لنفسها منهجاً للوصف أو التصنيف يقود إلى مزيد من الدقة فى وصف وتحديد مادة الدراسة .

والعلوم بعامة لا تكتفى بالمصطلحات التى نستخدمها فى الحياة اليومية ، وإنما تتخذ لنفسها اصطلاحات خاصة لها حدودها التى تحمل مضموناً محدداً . فإذا ما كان العلم دقيقاً فى مفاهيمه ، دقيقاً فى وصفه دقيقاً فى قياسه ، أمكنه متابعة التقدم نحو كشف قوانين جديدة ، واستطاع أن ينتقل من التقرير إلى التقدير ، من الماضى إلى المستقبل ، مستعيناً بالمناهج العلمية كالتصنيف والإعادة — أو التكرار — والإحصاء والتجربة

والقياس والسبب والنتيجة[(١)] .

١٨ — يبدو من هذا أن ما يطلق عليه الآن « علوم » يدخل فى المستوى الأوسط من التقسيم الثلاثى الذى مر بنا فى الفقرة (٨) من هذا البحث ، وأن العلوم الطبيعية أو المتصلة بالكون لا خلاف فى عدّها علوماً .. أما القسم الثالث فهو أدخل ما يكون فى النواحى التطبيقية . ويبقى بعد هذا قسمان أو على الأصح قسم وجزء من قسم : الأول هو المستوى الأعلى المتعلق بالوحى ، والجزء البشرى أو الإنسانى من المستوى الأوسط وهو المتعلق بالعلوم البشرية والقوانين التى تحكم التطور البشرى . ولكل من هذين الموضوعين مشكلاته الخاصة .

١٩ — فيما يتعلق بالمستوى الأعلى كان لعلماء الإسلام أكثر من منهج فى تأكيد الوحى : أولهما منهج الفطرة ، والثانى منهج الاستدلال العقلى . والمنهجان يرجعان معاً إلى القرآن :

(ا) فالقرآن يعدّ الإيمان فطرة : (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ)[(٢)]

(ب) ويصف الدين بأنه صبغة الله فى قوله تعالى :

---

(١) Mac Graw Hill Encyclopedia of Science & Technology Vol. 12: 72 — 74, 1960.

(٢) سورة الروم : ٣٠ .

(صِبْغَةَ اللهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ)[١] .

فهنا نجد تأكيداً للفطرة . ولهذا لا يُعَدّ الدين من وجهة النظر الإسلامية ظاهرة اجتماعية أوجدها الإنسان، وإنما هو « طبيعة » فيه . ومن هنا تأتى أصالتها وعمقها وامتدادها وبقاؤها :

أصالة ترجع إلى طبيعته الأولى .

وعمق يرجع إلى أقدم عصور حضاراته .

وامتداد يسير معه فى مراحل تاريخه .

وبقاء ما بقى هو فى الوجود .

(حـ) ويستند القرآن أيضاً إلى الدليل العقلى ؛ والعقل مناط التكليف فى الإسلام ؛ والثلاثة الذين لا يجازيهم الله بأعمالهم هم : المجنون حتى يفيق ، والنائم حتى يستيقظ ، والصغير حتى يكبر . فخطاب الدين موجه إلى العقل أولا . وفى هذا يقول الله تعالى : (إِنَّ فِى خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لَآيَاتٍ لِأُولِى الْأَلْبَابِ)[٢]

ويستخدم القرآن الدليل المنطقى فى قوله : (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا)[٣] ، وقوله : (قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذًا لَابْتَغَوْا إِلَى

---

(١) سورة البقرة : ١٣٨ . (٢) سورة آل عمران : ١٩٠ .

(٣) سورة الأنبياء : ٢٢ .

ذِى الْعَرْشِ سَبِيلاً . سُبْحَانَهُ وَتَعالَى عَمَّا يَقُولُونَ عُلُوًّا كَبِيرًا)[١] . ونعَى على قوم قولهم : (وَقَالُوا إِنْ هِىَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ)[٢] .

ومع استخدام القرآن كلا من المنهجين : الفطرة والاستدلال العقلى ، كان التطرف فى أى منهما مدعاة إلى الانحراف فى الفكر الإسلامى كما حدث مثلا بين المتصوفة والمعتزلة ، وبين المتصوفة والفقهاء ، عندما اعتمد بعض المتصوفة أساساً على الحس القلبى (علم الحقائق) وفرقوا بينه وبين العلم (بمعنى العلوم المألوفة للناس) ، فى حين عمد المعتزلة إلى علم الكلام واستخدام الأدلة العقلية فى إثبات الله وصفاته[٣] . وبدون أن ندخل فى تفاصيل الصراع الفكرى بين هؤلاء وهؤلاء نود أن نؤكد حقيقة كبيرة هى وجود بذور الفطرة والاستدلال العقلى معاً فى القرآن ، وأن الانحراف جاء من الاعتماد على أحدهما دون الآخر ، وتحول الحوار الفكرى إلى صراع مذهبى .. ومع اختلاف المناهج فى إثبات حقائق الدين لم يكن هنالك خلاف على أنها « حقائق » . كان الخلاف حول كيفية الإثبات لا الحقائق نفسها.. كانوا جميعاً مؤمنين بالله وبالبعث والجزاء مع تعدد طرق الإيمان .. أى أن إطار الإيمان كان يجمعهم جميعاً وإن تعددت فيه مدارسهم .

٢٠ — نأتى بعد هذا إلى العلوم الكونية . ونودّ هنا أن نؤكد ظاهرة رئيسية فى الفكر الإسلامى ونظرته إلى الكون ومادته من طبيعية وبشرية . فالإسلام يعد الكون كله مخلوقاً من أجل الإنسان ومجالا لنشاطه:

---

(١) سورة الإسراء : ٤٢ .   (٢) سورة الجاثية : ٢٤ .
(٣) آدم متز (المرجع السابق) ١ : ٣٣٤ — ٣٣٥ .

(هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)(١) .

وقوله تعالى : (اللَّهُ الَّذِى خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِىَ فِى الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الْأَنْهَارَ . وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ . وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ)(٢) .

فمادة الكون كلها خلقها الله تعالى للإنسان ، ويسر له أسباب تسخيرها واستخدامها لصالحه ، فإذا مافعل هذا رادًّا فضل ذلك إلى الله ، كان من عباد الرحمن ، وإلا فهو ظلوم كفار . وقد انعكست هذه النظرة على الفكر الإسلامى انعكاساً واضحًا .. مظهره عناية بظاهرات الطبيعة وحب لها . الكون عندهم ليس عدوًّا يحارب ، ولكنه مجال عمل وميدان نشاط يبذل فيه الإنسان طاقات الفكر والجسم ليعمره .. والناس عندهم عباد الله ، كلهم لآدم وآدم من تراب ، يتفاضلون بالتقوى .. ومن هنا لم تكن فى تاريخ الإسلام مشكلات لونية عنيفة كالتى نشاهدها الآن مثلا فى جنوب إفريقية أو الولايات المتحدة أو المستعمرات البرتغالية .. لم يكن فيه استنزاف ثروات الأرض كما يحدث فى الاستعمار

(١) سورة الملك : ١٥ .
(٢) سورة إبراهيم : ٣٢ – ٣٤ .

الجديد والقديم . من أمثلة ذلك وضع الأندلس فى ظل الإسلام وما حدث بعد هذا فى تلك الأرض .. هذه الناحية من الفكر الإسلامى لاتزال فى حاجة إلى بحث عميق ، وأكتفى فيها بأن الإسلام حيث طبق تطبيقاً سليماً استخدم مناهج العلم ، وأفاد من العلم فى ترقية المجتمع ورفع مستوى الحياة ، وإذا كانت هذه هى القاعدة العامة فلا يخلو الأمر من انحرافات ،ولكنها لا تصل فى درجتها ولا فى دوافعها إلى ما سجله الغرب فى آسيا وإفريقية وأمريكا وأستراليا من حروب إبادة واستغلال هدمى للثروات .

وإذا كانت هذه هى فلسفة المسلمين فى نظرتهم إلى العلوم الكونية فإن مناهج البحث فيها كانت بالدقة التى تتيحها لهم إمكانياتهم العلمية المتطورة .

ولقد ذهب الفكر الإسلامى بعامة إلى أن الملاحظة والتجربة هما أساس العلم وأصله ، لا التفكير النظرى المجرد وحده . ودرس المرحوم محمد إقبال هذه النقطة [1] وبين بالأدلة التاريخية أن الزعم بأن أوربا هى التى استحدثت المنهج التجريبى زعم خاطئ ، وكيف أن روجر بيكون استقى علومه من جامعات الأندلس ، وأن القسم الخامس من كتابه (Opus Magus) الذى خصصه بالبحث فى البصريات هو فى حقيقة الأمر نسخة من كتاب المناظر لابن الهيثم ، وهو من أعلام العرب فى الرياضة والطبيعات (ولد حوالى ٣٥٤ هـ = ٩٦٥م ، وتوفى بالقاهرة حوالى عام ٤٣٠ هـ = ١٠٣٩ م) وذكر له ابن أبى أصيبعة فى كتابه عيون الأنباء (٢ : ٩٠ — ٩٨) ما يقرب من مائتى كتاب ورسالة فى الرياضة والفلك والطبيعيات والفلسفة والطب [2] . وشهد العلماء الغربيون لابن الهيثم بفضله عليهم ، فقالوا إن كبلر أفاد من كتبه فى الضوء وانكساره .

---

(١) محمد إقبال : تجديد التفكير الدينى فى الإسلام . ترجمة عباس محمود ١٤٢ — ١٦٧

(٢) المرجع نفسه . هامش ص ١٤٩ .

وهو أول من شرح تركيب العين وبين أجزاءها بالرسوم وسماها بأسماء تطلق عليها حتى الآن كالشبكية والقرنية والسائل الزجاجى والسائل المائى [1].

ونستطيع أن نرى نماذج متعددة للمنهج العلمى قائمة على نقد المعلومات السابقة على أساس من إعادة التجارب وتحقيق النصوص والنظر إلى المعرفة الإنسانية ككيان تام متطور تضيف إليه الأجيال اللاحقة جديداً ، ما استطاعت إلى ذلك سبيلا .. هذا الاتجاه التطورى يعبر عنه أبو بكر الرازى – وإن كان حديثه منصباً على الفلسفة فيقول : « اعلم أن كل متأخر من الفلاسفة إذا صرف همته إلى النظر فى الفلسفة ، وواظب على ذلك ، واجتهد فيه ، وبحث عن الذى اختلفوا فيه لدقته وصعوبته ، علم علم من تقدمه منهم وحفظه ، واستدرك بفطنته وكثرة بحثه ونظره أشياء أخرى .. إذ كان البحث والاجتهاد يوجب الزيادة والفضل »[2] .

وهذه الناحية ليست محل جدل كبير بين العلماء ، فالإضافات التى قدمها المسلمون إلى التراث الإنسانى تزداد العناية بها يوماً بعد يوم ، ويزداد – تبعاً لذلك – بروز الجهد الإسلامى فى التراث العالمى .

٢١ – إلا أن الجانب الذى يحتاج إلى وقفة أطول هو القوانين البشرية أو قوانين المجتمع .. ولم يحدث عليها حتى الآن اتفاق بين العلماء (تراجع فقرة ١٧) . وترتب على هذا أن اختلفوا فى وضع التاريخ والاجتماع بين « العلوم » المضبوطة أو على الأقل الوصفية . ولعله آن الأوان لإعادة النظر فى هذا الموضوع .

موضوع قوانين المجتمع يمكن أن ينظر إليه من زاويتين :

(ا) هل هناك « أولا » قوانين لتطور المجتمع ؟

(ب) ما هى هذه القوانين وكيف نصل إليها ؟

---

(١) مادة : ابن الهيثم : الموسوعة الميسرة ص ٢٩ .

(٢) روزنتال : مناهج العلماء المسلمين (مترجم) ص ١٨٥ – ١٨٦ .

ولعل مشكلة الزاوية الثانية أشد من مشكلة الزاوية الأولى .. فمع الاتجاه التجريبي فى العلوم أخذت الجهود تبذل فى معرفة العوامل المؤثرة فى تطور المجتمع . ولم تعد دراسة التاريخ والمجتمعات البشرية مقتصرة على مجرد سرد الحوادث .. التاريخ لم يعد مجرد حقائق متتابعة كأنها شريط سينمائى ليست فيه حبكة ولا هدف. وكان لابد للتاريخ أن يتطور من مرحلة جمع المعلومات إلى ربطها وتحليلها ثم تفسيرها ..

وفى التفسير تعددت المدارس وأعطت التاريخ أكثر من تفسير . هناك التفسير الدينى والجغرافى والجنسى (العنصرى) والاقتصادى والنفسانى والتاريخ المركب[1] .. ولكل من هذه التفسيرات دعاتها والمؤلفات التى وضعت فيها .. وفى نطاق التفسير الواحد تتعدد أيضاً اتجاهات الكتاب : ففى التفسير الجغرافى — على سبيل المثال — نجد الحتمية الكلاسيكية والإمكانية أو الاحتمالية والحتمية الجديدة ، وإن كان الاتجاه الأكبر الآن نحو الإمكانية التى تعطى جهد الإنسان ونشاطه مجالا واسعاً ، وتجعل له الصدارة على مؤثرات البيئة الطبيعية ..

ومن الطبيعى أن يحاول دعاة كل تفسير من هذه التفسيرات إثبات وجهة نظرهم وعرض أحداث التاريخ بما يؤكد هذه الوجهة . وإذا ما كانت الدراسة على بيئة محدودة المدى فإن القدرة على التفسير تصبح أيسر نسبياً — وهذه القاعدة العامة إذا كان من الممكن تطبيقها بسهولة فيما مضى ، فإن العالم المترابط الآن يجعل التفسير الموضعى المجرد بعيداً عن الصواب. فالعالم الآن أصبح كالصندوق الرنان تتردد فى جوانبه كلها أية طرقة عليه .. ويلقى هذا عبئاً كبيراً على دراسة قوانين التاريخ ..

٢٢ — وأبادر فأقول إن دراسة قوانين التاريخ أو قوانين المجتمع ينبغى أن يراعى فيها جانبان :

---

(١) ول ديورانت : مناهج الفلسفة (مترجم) ٢ : ٥٠–٥٧ . وانظر أيضاً : حسن عثمان : منهج البحث التاريخى — دار المعارف بمصر .

(ا) الجهد البشرى المبذول فى تطوير المجتمع .

(ب) النتائج المترتبة على هذا الجهد وارتباطها به ارتباطاً «حتميًّا » .

أى أن حتمية هذه القوانين لا تأتى من سلبية الفرد ولكن من إيجابيته التى هى جزء أساسى فعال فى الوصول بالتجربة البشرية إلى نتيجتها .. ذلك لأننا لو سلمنا بحتمية القوانين وسلبية الإنسان ، لكنّا من حيث لا ندرى — أو ندرى — قد رجعنا إلى القول بسلبية الإيمان بالقضاء والقدر ، لا بإيجابيته . إن القدرية السلبية فى الفكر الإسلامى يقابلها القول بحتمية القوانين مع سلبية الإنسان فى الفكر المعاصر .. فلا فرق هنا علميًّا بين « القدرية السلبية » و« الحتمية» على إطلاقها . وإنما الذى يؤكده الإسلام مع الإيمان بالقضاء والقدر هو إيجابية الإنسان وارتباط هذا بالنتيجة فى الدنيا والجزاء فى الآخرة ، وصدق الله :

(إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ)(١) .

هناك إذن ارتباط قوى — بل أقول تكامل — بين وجود القوانين التى يسير بها المجتمع وبين إيجابية الفرد والجماعة . ارتباط بين حتمية القوانين والجهد الإيجابى المبذول .. بحيث لو تخلف الفرد أو الجماعة عن بذل الجهد الصحيح فى مداه ونوعيته ، لما استطاع المجتمع الوصول إلى النتائج التى يستهدفها .

٢٣ — بهذا الضوء نستطيع أن نعود إلى القرآن الكريم ، لنحاول أن ندرس فيه هذه الزاوية . وسنتخذ نموذجاً لهذه الدراسة من سورة إبراهيم . وسبب اختيار هذه السورة بالذات أنها من السور التى تدرس مظاهر التفاعل بين الرسل والشعوب بدون أن تحدد فى سياق القصة اسم نبى أو شعب .. ويأتى هذا بعد أن تذكر السورة الكريمة عدة أنبياء

---

(١) سورة الرعد : ١٢ .

وتلخص قصصهم معاً ، وتبين مظاهر التفاعل ثم تنتهى بعد هذا بنتيجة ..

وبعبارة أخرى نرى قصة متكررة فى تاريخ الإنسانية قد تختلف فى تفاصيلها من شعب إلى شعب ، ولكن هناك سمات عامة أو « قوانين » تحكم هذا الصراع الذى يحدث بين الدعوة الجديدة والقوى التقليدية الموجودة فى المجتمع . ولنعرض معاً هذه المراحل :

(ا) (أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لَا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا اللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّوا أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ وَقَالُوا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ)(١) .

فالصورة أمامنا متكررة فى أقوام نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله .. والمشهد الأول فيها مجىء الرسل إلى أقوامهم ، فلا يجدون منهم أول الأمر إلا التكذيب والشك . ولا ييأس الرسل من هذا وإنما يتابعون دعوة قومهم إلى الحق مستندين فى هذا إلى أكثر من دليل ، فلا يجدون من قومهم مرة أخرى إلا التكذيب ومحاولة التشكيك فى هذه الأدلة وصرف أنظار الناس عنها . وفى هذا يقول الله تعالى :

(ب) (قَالَتْ رُسُلُهُمْ : أَفِى اللَّهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يَدْعُوكُمْ لِيَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ

---

(١) سورة إبراهيم ٩ .

وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ، قَالُوا : إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا تُرِيدُونَ أَنْ تَصُدُّونَا عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا فَأْتُونَا بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ . قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ : إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلٰكِنَّ اللّٰهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللّٰهِ وَعَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ . وَمَا لَنَا أَلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللّٰهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللّٰهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ) .

(ح) واضح من هذا أن الصراع حدث ، وأن هناك إيذاء .. الرسل يدعون قومهم ، والذين يسيطرون على مقدرات القوم متمسكون بما هم فيه لا يريدون تغييراً ، وأنهم مدوا أيديهم بالإيذاء إلى الرسل . ويصل هذا الإيذاء إلى الإخراج من الوطن أو التهديد به كما توضحه الآيات التالية :

(وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُمْ مِنْ أَرْضِنَا أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَا فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ الظَّالِمِينَ . وَلَنُسْكِنَنَّكُمُ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِهِمْ ، ذٰلِكَ لِمَنْ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ . وَاسْتَفْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ) .

(د) تتتابع بعد هذا مشاهد القصة ، وبقيتها فى الآخرة مرتبطة بما حدث فى الدنيا ، مؤكدة ضرورة حرية الإرادة فى الفرد ، وثورته على الظلم الواقع عليه . وفى هذا يقول الله تعالى :

(وَبَرَزُوا لِلهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا : إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللهِ مِنْ شَيْءٍ ؟ قَالُوا : لَوْ هَدَانَا اللهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَالَنَا مِنْ مَحِيصٍ) .

ثم تبلغ القصة ذروتها حين لا يتبرأ بعضهم من بعض فقط ، ولكن حينما يتبرأ منهم الشيطان نفسه قائلا : (وَمَا كَانَ لِي عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ) .

ولو أردنا أن نلخص القصة كلها ونحاول أن نخرج منها بقوانين ، لوجدنا أولا : مايلقاه أصحاب الحق من مقاومة وعنف .. هذا القانون الذى عبر عنه القرآن الكريم فى أكثر من آية مثل قوله تعالى : (أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ)(١) هو القانون الذى حمل فى التاريخ أكثر من اسم ، مثل قانون الثورة والثورة المضادة .. عبر عنه ورقة ابن نوفل عندما ذهبت إليه خديجة تصحب النبى عليه الصلاة والسلام تخبره عن الوحى الذى أنزل عليه فقال ورقة : « والذى نفسى بيده إنك لنبى

---

(١) سورة البقرة : ٨٧ .

هذه الأمة ، ولقد جاءك الناموس الأكبر الذى جاءُ موسى ، ولتكذبنَّه ولتؤذينَّه ولتخرجنّه ولتقاتلنّه ، ولئن أنا أدركت ذلك اليوم لأنصرن الله نصراً يعلمه[1] » .

٢٤ ـ قانون آخر يمكن أن نخرج به من آيات متعددة من كتاب الله هو ارتباط الترف بالإفساد . وهؤلاء المترفون من أشد من يقاوم الحق والتغيير فى المجتمع .. ويقول الله تعالى هذا فى قاعدة شاملة فى القرآن :

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ)[2] .

ولقد ذكر الله الترف فى ثمانية مواضع من كتابه الكريم ليس فيها واحد فى مجال المدح أو الإقرار وإنما ترتبط بالظلم والفسق فى الدنيا والعذاب فى الآخرة[3] .

٢٥ ـ إن معظم من يقبل على الحق هم الشباب والفقراء . على حين يحاول المترفون أن يربطوا بين الحق والغنى المادى ..

(ا) ويصف الله أصحاب موسى بقوله : (فَمَا آمَنَ لِمُوسَى إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَنْ يَفْتِنَهُمْ)[4] .

---

(١) سيرة ابن هشام : ١ : ٢٥٤ ، والهاء الواردة فى أواخر الأفعال فى هذه العبارة للسكت .

(٢) سورة سبأ : ٣٤ .

(٣) راجع مادة « ترف » فى المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم .

(٤) سورة يونس : ٨٣ .

(ب) وقال عن قوم نوح : (قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ)(١).

وقال عنهم فى سورة هود (آية٢٧) : (فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ) .

(حـ) وعن مشركى مكة : (وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ)(٢). وليس معنى هذا أن الفقراء هم « وحدهم » أتباع الرسل . فالإسلام يفرق بين الغنى والترف . وإذا كنا فى مجتمعنا نعمل من أجل « الكفاية » فنحن نحارب « الترف» فى الوقت نفسه .

وهكذا يمكن أن نخرج فى، بساطة بقوانين اجتماعية تسير عليها المجتمعات إلى جانب القوانين الطبيعية التى رأيناها من قبل فى الكون .

٢٦ ــ وهذه القوانين التى نستطيع أن نخرج بها من دراسة قصص القرآن يمكن أن نضمها إلى توجيه القرآن لنا بالسير فى الأرض (فقرة ١٦) ودراسة تاريخ الأمم وأحوالها لنرى عواقبها .. وإلى دعوته لنا بدراسة ما نحن فيه ، ويستطيع الباحث بهذا أن يكشف المزيد من قوانين الطبيعة والمجتمع . وما يصل إليه الباحث لا يخرج عن كونه « نتائج» يمكن أن يطرأ

---

(١) سورة الشعراء : ١١١ .

(٢) سورة الزخرف : ٣١ .

عليها تعديل مع تطور أحداث الحياة ... والنموذج القريب فى الفكر الإسلامى لمحاولة كبيرة فى هذا المجال هو ما قام به العلامة ابن خلدون (١٣٣٢ – ١٤٠٦م) وسجله فى مقدمته المعروفة .. ويذهب ابن خلدون[1] إلى أن تكون التجربة أساس علمنا بالعالم ، وليس المقصود هو التجربة الفردية ، ولكن تجارب الإنسانية كلها مجموعة بعضها إلى بعض . وقد وضع ابن خلدون فلسفة التاريخ على أساس من تتبع الحوادث إلى عالمها وكشف قوانينها ، وعنده أن معرفة الحاضر معرفة صحيحة هى وسيلتنا المأمونة إلى معرفة الماضى وإلى معرفة المستقبل .. والتاريخ يبين أعمال الناس وطرائق معاشهم ومنازعاتهم وحكوماتهم وصناعاتهم وعلومهم ، ثم يبين كيف تزدهر المدنية قليلا قليلا بادئة من مبادئ بسيطة ، ثم تأخذ فى الزوال ، وتتقلب الجماعة فى صور مختلفة هى : حالة البداوة ، ثم القبيلة ، ثم الدولة فى مدينة .. وأن أسباب تدهور المجتمع ما قد تسببه الحضارة من رغد وانغماس فى الشهوات ومن فقدان الناس لبأسهم الحربى والتمسك بدينهم . وعندئذ تظهر قبيلة قوية تأتى من الصحراء أو شعب غير مترف يتمتع بعصبية قوية ويقضى على المجتمع المترف لينشئ دولة جديدة . فشأن الدول والجماعات الكبرى هوهكذا : الجيل الأول يبنى ويؤسس ، والثانى يحافظ على ما بناه الأول ، والأخير يهدم ، وتلك حال المدنيات كلها ، إذ أن للمدنية والعمران البشرى قوانين ثابتة .

هذه خلاصة موجزة لقضية القوانين الاجتماعية عند ابن خلدون ، ولا نود أن نقف طويلا عند دراستها – فى هذا البحث فمنها ما أثبته العلم ومنها ما نفاه ومنها ما طوره – وإنما الذى يعنينا منها الآن هو أنها

---

(١) تراجع مقدمة ابن خلدون . وطبعاتها متعددة . ودراسة لمنهجه كتبها « على عبد الواحد وافى » صدرت فى سلسلة أعلام العرب بعنوان « عبد الرحمن ابن خلدون » – أبريل ١٩٦٢ .

كانت دراسة رائدة لمحاولة كشف القوانين العلمية التى يتطور بها المجتمع ، وجاءت من بعدها محاولات أخرى كثيرة شأن الحياة فى تدفقها .

والخلاصة

١ ــ أن الإسلام ينظر إلى الوجود كله نظرة تكاملية .

٢ ــ وأن العلم فى المفهوم الإسلامى شامل يضم ما جاء به الوحى وما يصل إليه الإنسان بجهده على المستويات العقلية والتدريبية .

٣ ــ وأن الدعوة إلى البحث العلمي دعوة أصيلة فى الفكر الإسلامى .

٤ ــ وأن القرآن الكريم يلفتنا إلى التأمل فى الكون والنفس والتاريخ الإنسانى ويذكر لنا نماذج من ظاهرات الكون والمجتمع نستطيع أن نستهدف بها محاولة كشف القوانين العلمية التى يسير بها الكون ويتطور بها المجتمع على أساس من الدراسة العلمية القائمة على الملاحظة والتجربة .

٥ ــ وأن الفكر الإسلامى سبقت له محاولات رائدة فى هذا المجال أبرزها محاولة ابن خلدون فى مقدمته أن يكشف قوانين تطور المجتمع .

الفصل الرابع

الإســـلام والإدارة

محاضرة ألقيت فى الموسم الثقافى لمعهد الدراسات والبحوث الإحصائية – جامعة القاهرة ، فى أول ذى الحجة ١٣٩١ هـ الموافق ١٧ من يناير سنة ١٩٧٢

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله ، والصلاة والسلام على خاتم رسل الله ، وعلى إخوانه من الأنبياء المرسلين ، ومن سار على هديهم إلى يوم الدين .

إخوتى : السادة المدير ، والأمين ، والعميد ، وزملائى ، وأبنائى :

هذه مناسبة كريمة ألقاكم فيها ، لنتحدث معاً عن موضوع الإسلام والإدارة على أساس من عرض بعض النماذج الإدارية وتحليلها . وأذكر فى مستهل هذا الحديث كلمة للإمام على بن أبى طالب كرم الله وجهه حينما ذكر عنه بعض أصحابه جانباً من الخير والمديح ، كما فعل معى أخى الأستاذ الدكتور عميد المعهد، فكان من قوله اللهم اغفر لى ما لا يعلمون واجعلنى خيراً مما يظنون .

أما فيما يتعلق بالتعاون مع هذا المعهد الكريم ، فإننى أعدّه حجرة من بيتنا الكبير : جامعة القاهرة ، التى نشأنا فى رحابها ، وعشنا فيها طلاباً وعاملين فى هيئة التدريس . ولم تنقطع صلتنا بها ؛ إذا كنا فيها لم ننقطع عن المجتمع الكبير ، وإذا كنا فى المجتمع الكبير ظل الحنين إليها حيّاً بين جوانحنا .

١ — شمول الإسلام :

وأما عن موضوع الإدارة ، من حيث علاقته بالإسلام ، فأود أن نبدأ أولا بعرض لمفهوم الإسلام فى شموله ، ونحن حينما نتحدّث عن الإسلام فى شموله، إنما نؤمن به ديناً آمن بكل نبى ورسول ، وعدّ الإيمان بالأنبياء من لدن آدم عليه السلام ، حتّى عيسى عليه السلام ، جزءاً

من الإسلام . وفي هذا تقرأ قول الله عز وجل : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ ، وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)(١).

والنبي عليه الصلاة والسلام ، أكد هذا المعنى فى حياته بأكثر من طريقة ، يقول على سبيل المثال : « مثلي ومثل الأنبياء من قبلي كرجل بنى بيته فجمّله وحسنه ، إلا موضع لبنة فى زاوية من زواياه ، فكان الناس يطوفون بالبيت ، ويعجبون ، ويقولون : ما أجمله ! ما أحسنه ! هلا وضعت هذه اللبنة ؟ ! فأنا اللبنة ، وأنا خاتم النبيين »(٢) .

ويقول : « بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »(٣). وأنت لا تتمم إلا على أساس شيء قائم بين يديك . وما كان يتحدث عن نبي إلا بقوله : أخي . والله تبارك وتعالى يدعوه إلى أن يهتدى بهديهم ويسير على طريقهم :

(وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ)(٤).

---

(١) سورة البقرة : ٢٨٥..

(٢) أخرجه البخارى فى صحيحه عن أبى هريرة فى كتاب المناقب ، باب خاتم النبيين ٥ : ٤٠٧ — ٤٠٨ .

(٣) رواه مالك فى الموطأ وأحمد عن أبى هريرة . انظر مشكاة المصابيح للتبريزى ٢ : ٦٣٢ رقم ٥٠٩٦ ، ٥٠٩٧ . ط . المكتب الإسلامى بدمشق بتحقيق محمد ناصر الدين الألبانى . ١٣٨٠ هـ — ١٩٦١ م .

(٤) سورة هود : ١٢٠ .

فهذه مدرسة ربانية ، النماذج التى فيها هى سير الأنبياء والمرسلين بدون تفرقة بين نبى ونبى أو رسول ورسول. هذا هو تصوّر الإسلام فى شموله التاريخى أو الموضوعى .

وأنت إذا نظرت ، حتى من الناحية الحسابية البحتة ، إلى تقسيم آيات القرآن الكريم من حيث علاقتها بالموضوعات، تجد أن ما لا يقل عن سبعة أثمان القرآن الكريم يختص بقصص الأنبياء السابقين، والثمن الباقى يختص بالمجتمع النبوى وأحكامه . معنى ذلك أن التاريخ البشرى — فى منظور القرآن الكريم ، وبالتالى فى المنظور الإسلامى — وحدة إنسانية شاملة رائعة . وضح الله تبارك وتعالى لنا هذا الشمول فى ليلة الإسراء والمعراج حينما جمع الأنبياء فى صلاة واحدة مع النبى عليه الصلاة والسلام ، على تتابع وتباعد الديار . لماذا ؟ لكى نتعلم — نحن الناس — ذلك الإخاء الإنسانى الرحب الكبير الذى أوضحه القرآن الكريم فى قول الله تعالى: (إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ).(١) وقول النبى عليه الصلاة والسلام فى حديثه الصحيح ، الذى كان يدعو به ربه فى أعقاب صلاته : « اللهم ربنا ورب كل شىء ، أنا شهيد أن العباد كلهم إخوة » (٢) .

هذا المعنى لم يكن مقتصراً على النبى عليه الصلاة والسلام وإنما نجده حتى فى أخبار الخلفاء الراشدين . يقول على بن أبى طالب للأشتر النخعى حينما ولاه مصر متحدثاً عن الرعية : « وأشعر قلبك الرحمة بهم ، والمحبة لهم واللطف بهم، ولا تكونن عليهم سبعاً ضارياً تغتنم أكلهم ، فإنهم

---

(١) سورة الحجرات : ١٠ .

(٢) من حديث رواه أبو داود عن زيد بن أرقم . انظر فى جامع الأصول لابن الأثير الجزرى ٥ : ٥٢ رقم ٢٢٠٢ط . السنة المحمدية بالقاهرة ١٣٧٠هـ — ١٩٥٠ م .

صنفان : إما أخ لك فى الدين ، أو نظير لك فى الخلق ، يفرط منهم الزلل وتعرض لهم العلل »[١] ، ثم يجعل لهم جميعاً الحق فى المال فيقول : « والناس عيال على الخراج وأهله . وفى الله لكل سعة ، ولكل على الوالى حق بقدر ما يصلحه »[٢] . والوالى هنا مسئول مسئولية شاملة ، عن كل المجتمع الذى يعيش فيه . ومن هذا المنطق والشمول الكبير ، والأخوة الإنسانية يمكن أن ننظر إلى الإسلام .

٢ ــ الحركة فى الإسلام

ونتقل بعد هذا إلى عنصر ثان ، وهو ما يمكن أن نسميه بعنصر الحركة فى الإسلام[٣] .

وأنت حينما تقرأ القرآن الكريم ، تجد أنه يدعوك إلى أن تتأمل فى هذا الكون ، وإنه ليعدّ هذا الكون كله مسلماً لله تبارك وتعالى . وحينما خاطب الله السموات والأرض لتأتيا طوعاً أو كرهاً قالتا : (أَتَيْنَا طَائِعِينَ)[٤] ويعدّ هذا الكون كله فى سجود لله ، وفى تسبيح لله : (وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ

---

(١) نهج البلاغة وهو مجموع ما اختاره الشريف الرضى من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب ٣ : ٩٣ — ٩٤ شرح الشيخ محمد عبده ط التجارية بمصر .

(٢) نهج البلاغة : ٣ : ١٠١ .

(٣) محمد إقبال : تجديد الفكر الدينى فى الإسلام . الترجمة العربية لعباس محمود ص ٤٣ — ٧٤ عند دراسته البرهان الفلسفى على ظهور التجربة الدينية ط . لجنة التأليف والترجمة والنشر — القاهرة ١٩٥٥ . وانظر أيضاً فى دراسة مبدأ الحركة فى الإسلام : حسن صعب : تحديث العقل العربى . الفصل الثالث عن التحديث القيمى ص ٨٣ — ١١٥ . دار العلم للملايين — بيروت ١٩٦٩ .

(٤) سورة فصلت : ١١ .

إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ)(١) ، ويعدّ الكون كله فى حركة مستمرة . انظر إلى ما خلق الله فى السموات والأرض ، وكيف يوجهك الله إليه :

(وَالشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ، وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ)(٢) .

ولقد درسنا الذرة ، وعرفنا أنها قائمة على الحركة ، بل عرفنا أنها كون صغير ، لا يفترق من ناحية الأسس العلمية التى يتحرك فيها عن هذا الكون الكبير . فكأن الكون ذرة واحدة كبيرة ، وكأن الذرة كون صغير ، وأنت تعرف أن المسافات فيما بين مكونات هذه الذرة ، منسوبة إلى حجمها ، لا تختلف عن المسافات بين أجزاء هذا الكون منسوبة إلى حجمها . هذه الحركة الكونية تنقلنا إلى حركة الحياة والتاريخ :

(وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ)(٣). وأنت مأمور بالحركة : (قُلْ سِيرُوا فِى الْأَرْضِ)(٤) ، وقد تكور الأمر بالسير فى الأعرض ، فى أكثر من آية قرآنية : (هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ

---

(١) سورة الإسراء : ٤٤ .
(٢) سورة يس : ٣٨ — ٤٠ .
(٣) سورة آل عمران : ١٤٠ .
(٤) سورة الأنعام : ١١ .

وَإِلَيْهِ النُّشُورُ)(١) ، والمجتمعات فى حركة : (وَلَوْلَا دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ)(٢).

حتى الماء إذا سكن ، أسن ، وأصبح مستنقعاً ، وإذا تحرك ولدت منه الكهربا .

هناك حركة فى التاريخ ، وحركة فى النفس ، وحركة فى الكون . ومن منطلق الحركة لا يمكن أبداً أن نقيم الحياة على جمود. وعلى سكون ، وعلى ما يمكن أن نسميه الروتين . إنه ينبغى أن يتحرك ، والإدارة تتحرك ، والجامعة تتحرك ، وكل شىء يتحرك.وليس من منطق العقل أن هذه الشمس الجبّارة لا تقضى يومين فى مكان واحد من يوم أن خلقها الله: (وَكُلٌّ فِى فَلَكٍ يَسْبَحُونَ) ، وهذا ما أثبته العلم الحديث.ثم بعد هذا نأتى إلى قوانين من القرن التاسع عشر والثامن عشر ، واللوائح القديمة والنص يقول كذا ، والقانون يقول كذا ، ثم نتحجر على ذلك ، وحينما نقول : نتحجر ، فإننا نظلم الحجر لأن ذراته متحركة . فى هذا الضوء يمكن أن ندرك جانباً من العمق العميق فى قول الله تبارك وتعالى:

(وَإِنْ مِنْ شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَٰكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ) (٣).

التسبيح حركة ، فهذه الحركة من كائن إنما هى تسبيح ، تسبيح معهد الدراسات والبحوث الإحصائية أن ينتج وأن يعمل ، وتسبيح

---

(١) سورة الملك : ١٥ . (٢) سورة البقرة : ٢٥١ .
(٣) سورة الإسراء : ٤٤ .

الجامعة أن تتطور ، وتسبيح القوات المسلحة أن تستعد بالعلم والسلاح والإيمان والتنظيم ، وأن تكون وسيلتنا لاسترداد حق وصيانة مجتمع .

ومن هنا فليطالب كل إنسان منا نفسه بتسبيح الله ، بل ينبغى عليه أولا أن يعرف نوع التسبيح المطلوب منه ، هذا هو العنصر الثانى وهو عنصر الحركة .

وهناك ملاحظة يمكن أن نربطها بهذا العنصر ، ذلك أن الله سبحانه وتعالى لم يقسم فى القرآن بشىء وهو فى حالة سكون قط :

(وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ) . لأنها تتحرك ، (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى) ، (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ) ، و (يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ) ، حتى القلم حينما أقسم الله به ، أقسم به فى حركته فقال : (ن . وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) .

وأمامنا فى بحثنا هذا ثلاثة مجالات متحركة :

العلم . الدين . المجتمع

ونحن محتاجون إلى إيجاد تناسق بين هذه المجالات جميعاً .

ولنسائل أنفسنا : هل معنى الحركة تغيير كل شىء ؟

انظر إلى نفسك : إن الله سبحانه وتعالى خلقك وأوجدك . تبدأ رحلة الحياة من نطفة لا تكاد ترى بالعين ، حتى تستوى بشراً سوياً . وأنت فى سن العشرين ، تحمل الاسم نفسه الذى تحمله فى سن الأربعين ، وتحمله طول حياتك ، وذكراك — ولكل منا بعد الحياة ذكرى — تحمل الاسم نفسه . اسمك من عناصر الثبات والتعريف بك ، وليس معنى التغيير والتبديل — ولنضرب لذلك مثالا — أن نجتهد ونجعل لكل طالب

اسماً كل سنة ! ! ولو فعلنا . فما الفائدة ؟ ومع ثبات اسمك فى المعهد تزداد معلوماتك كل سنة بل كل محاضرة أيام الدراسة .

فيك إذن نموّ مستمرّ، والنموّ تغيّر . وفيك عناصر ثبات . فأنت فى أية لحظة تجمع بين الثبات والتغير . والذى يتغيّر ينبغى أن تكون فيه بعض صفات الثبات ، على الأقل لكى نستطيع أن نقيس التغير . وإلا فكيف أقيس طول شىء وطول المسطرة نفسها متغيّر؟ كيف أستطع أن أزن والموزين عندى متخالفة ؟ كيف أطمئن إلى جهاز حاسب ، وأساس حسابه متغير ؟ إذن : مع التغير ينبغى أن تكون هناك عناصر ثبات .

٣ ــ التغير والأصالة :

أذكر فى لقائنا الماضى فى شهر رمضان عرضت للعقيدة (١) . ونحن فى منطقة الشرق الأوسط نؤمن بالتوحيد بطريقة أو بأخرى . وأقولها واضحة ، يستوى فى هذا الإسلام مع المسيحية مع اليهودية ، حتى الإيمان بالأقانيم الثلاثة فى الفكر المسيحى يختم « بإله واحد » . هذه منطقة توحيد، الصور تختلف، تفسيرها الفلسفى يختلف . حتى فى مصر القديمة مع التعدد الظاهرى ، كان للآلهة كبير هو أوزير — ومن دونه آلهة أصغر من رجال ونساء وأطفال . ولها تنظيماتها من الثالوث والتاسوع ومحكمة الآلهة التى تضم اثنين وأربعين إلهاً (٢) .

---

(١) عبد العزيز كامل : التخطيط العلمى فى القرآن الكريم . من محاضرات الموسم الثقافى ٦٨ — ١٩٦٩ بمعهد الدراسات والبحوث الإحصائية ص ١ — ٢٠ . ط جامعة القاهرة .

(٢) أرمان : ديانة مصر القديمة ترجمة عبد المنعم أبو بكر ومحمد أنور شكرى ص ١٠٢ — ١١٣ وما بعدها . وهذه الأسس لها أكثر من تطبيق فى فصول الكتاب . ط . مصطفى الحلبى بمصر (بدون تاريخ) .

رياضيًّا أساس الإحصاء هو الواحد الصحيح : ما دونه كسور ، وما فوقه تعدد. هو الرقم الوسط .كل كسر نضعه أقل منه، إذا عكسته أعطاك عدداً مضاعفاً فوقه . الرقم الواحد هو القائم بذاته . هل نقرأ مع هذا قول الله تعالى : ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ .

إن الجزء الذى تؤكده هو الذى يبرز شخصيتك التى تعيش بها . والجزء الذى تغيره هو الذى يجدد هذه الشخصية فى الحياة . فهناك تأكيد للشخصية وأصالة وهناك تغيير وإثراء .

انتقلنا من الشمول إلى الحركة ، إلى الأصالة والتجديد . ولنأخذ الدين على سبيل المثال . ما هى عناصر الاستقرار فيه ؟

أولا — العقيدة : وفى كل دين تعدّ العقيدة أساساً : ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَى وَالصَّابِئِينَ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحاً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾(١) .

ثانياً — العبادات : ولكل دين شعائره التى تدعو أتباعه إلى القيام بها ، ولها فى الإسلام أثرها فى تحديد ملامح المجتمع ، ولها آثارها الاجتماعية فى الوقت نفسه ، ومرونة التطبيق مع ظروف المجتمع المتغيرة .

ثالثاً — الأخلاقيات : التى تقوم بها الحياة ، ولو نظرت إلى حياتنا اليومية وتجاهلت الأساس الأخلاقى . فلن يستطيع المجتمع أن يتحرك دقيقة واحدة . فعندما أذهب إلى الصيدلية ، وأطلب دواء فإنما آخذه ولا أحلله بنفسى . لثقتى فى الصيدلية ، وقد رضيت به قبل هذا بناء على ثقتى فى الطبيب ، ثم بعد ذلك أتناوله . وعندما أفتح الصنبور لأخذ

---

(١) سورة البقرة : ٦٢ .

كمية من الماء – لتناول الدواء – هل أجرى تحليلا لكمية الماء هذه ؟ قبل ركوبى السيارة هل أكشف على بصر السائق وعلى قوة السيارة ؟ وعندما أركب طائرة هل أكشف على الأجهزة ؟ إذن : الحياة تقوم أساساً على الثقة أكثر مما تقوم على الشك .

رابعاً – هذه الأخلاقيات يعبـِّر عنها إطار عام من المعاملات لا يمكن فصله عن الأساس الأخلاقى . والدين يعطينا هذا الإطار العام . ويترك لنا حرية واسعة من التطبيقات . وصفوة القول أن الدين يقوم على إيمان بالله وعمل صالح فى الدنيا وجزاء وحساب على ذلك فى الآخرة . وفيما وراء ما حدده الدين ، ترك لك مرونة واسعة جداً فى التطبيق فى كافة مجالات الحياة .

٤ – نموذج تطبيقى

ولنأخذ نموذجاً تطبيقياً من الشورى فى الإسلام. وهى أساس عريض تقوم عليه حياة أى مجتمع . إن الإسلام يؤكد فيها جانبين :

الأول : أنها جزء من تكوين المجتمع (وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ)(١) .

الثانى : على الحاكم أن يستشير أصحاب الرأى والحق : (وَشَاوِرْهُمْ فِى الأَمْرِ)(٢) .

ولنفرض أن نكسة حدثت فى المجتمع ، أو هزيمة سياسية ، أو عسكرية ، أو اضطراب رأى يحتاج إلى إعادة نظر ، فلا يمكن بالمقاييس الإسلامية أن يتخذ ذلك ذريعة لإهدار حق القاعدة أو أصحاب الرأى فى إبداء آرائهم فيما يعود عليهم بالنفع . وما اصطلحنا – فى مجتمعاتنا

---

(١) سورة الشورى : ٣٨ . (٢) سورة آل عمران : ١٥٩ .

المعاصرة — على تسميته بالحوار فى كافة مرافق حياتنا ، إنما هو أساس عريض وأصيل فى الحياة الإسلامية .

ولنذكر لذلك مثالا مما حدث بعد هزيمة المسلمين فى غزوة أحد (١). فلقد خالف الرماة عن أمر النبى عليه الصلاة والسلام ، بعد أن اتفقوا على خطة المعركة . وعدلوا عن الخطة الأولى التى تكتفى بالدفاع عن المدينة دون لقاء العدو خارجها .

وكان من أثر مخالفة الرماة أن انكشف ظهر الجيش واضطربت صفوف المسلمين واستشهد منهم سبعون وجرح سبعون . وبرغم الآلام والجراح لم يستطع كفار قريش أن يقتحموا المدينة أو يقتلوا الرسول القائد (ص) .

التخطيط الدقيق كان من الرسول . والخطأ كان منهم مرتين ، ولكن هذا لم يكن مدعاة إلى إهدار حق القاعدة فى إبداء رأيها ، ولا إلى إسقاط مبدأ الشورى من حياة المجتمع . فنحن نتعلم من التجربة والخطأ . وعلينا أن نتابع الحوار بعقل وقلب مفتوحين ونؤصل مبدأ الشورى أو الديمقراطية إذا شئنا اصطلاحاً شائعاً .

بعد الهزيمة يوجه الله رسوله إلى أخلاقيات القيادة . القدرة على جمع الصف بالكلمة الطيبة والقلب الكبير ولين الجانب ، برغم الجراح والآلام. فيقول له: (فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ . . .)(٢). والعفو باللسان ، والاستغفار بالقلب .

---

(١) عبد العزيز كامل : دروس من غزوة أحد ، الطبعة الثانية ، دار المعارف ١٩٧١ .

(٢) سورة آل عمران : ١٥٩ .

فإذا ما هدأت النفوس انفتح المجال أمام الشورى وإبداء الرأى ، فى جوّ صحىّ لا تختنق فيه الفكرة ، ولا تهتز ثقة الفرد فى نفسه ومجتمعه وقيادته ... من أجل ذلك نقرأ بقية الآية : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ .

فإذا جمع الرسول ما عندهم من رأى وتبلور هذا كله فى خطة واضحة ، فلتأت مرحلة ثالثة بعد إشاعة جو الثقة والمحبة وبعد جمع الآراء ، وفيها نقرأ قول الله تعالى : ﴿فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ .

ومادام هذان الأساسان متوافرين : أن تكون الشورى أسلوب حياة بين العاملين ، وأن على القائد جمع الآراء . . فإن ما يوصلك إلى هذين الهدفين متروك لك . . .

للمجتمع أن يكوّن اللجان العلمية المتخصصة فى الجامعات ، ويعقد الندوات ، ويناقش القضايا فى مجلس الشعب أو فى الصحافة . وأن تكون حركة الفكر فى المجتمع صاعدة هابطة : صاعدة من القاعدة إلى القيادة فى جميع مجالاتها . هابطة من مستويات القيادة إلى أركان المجتمع ، متممة بذلك دورتها الحية بكل ما تحمل من ربط بين القضايا المركزية واللامركزية ، الكلية والجزئية ، الاستقرائية والاستنباطية ، النظرية والعملية .

ويعطينا هذا مثالا واضحاً للجمع بين الثبات والتغير فى المجتمع : ثبات مبدأ الشورى وتغير أساليبه .

٥ — التنسيق بين حركة العلم والدين والمجتمع

فى قضايا الفكر نحن محتاجون إلى التفرقة بين الأصيل والوافد ، الإنسانى العالمى ، والمحلى عندنا أو عند غيرنا . والفكر أحياناً قد يعامل

دولياً معاملة السلع التجارية ، ويخضع لعوامل من الترويج أو مؤامرات الصمت . وقد يحدث « إغراق » للأسواق العالمية بأنواع من الفكر تجد من ينفق عليها ويسعى إلى نشرها بحسبانها امتداداً لوجوده .

وقد نستورد دراسات عن أنواع الصراع ليست قائمة فى مجتمعاتنا أو على الأقل لم تصل إلى درجة الحدة التى كانت بها فى أقطار جاءتنا منها هذه الدراسات . ومن أقرب الأمثلة على ذلك قصة الصراع بين العلم والدين . فنحن فى مجتمعاتنا ما زلنا نطلق اسم العالم على رجل الدين .. وسمينا نقابة الأطباء « دار الحكمة » وما زلنا نؤمن بالمعرفة فى شمولها . ولم نشاهد عنف هذا النزاع الدموى بين العلم والدين الذى عاشته أوربا ، ووصلت به الكنيسة إلى مستوى من الإرهاب العلمى أرهقت الشعوب من أمرها عسراً حتى طالبت بتنحية الدين عن واقع الحياة . ومرت هذه المرحلة ، وأخذ الدين الآن — وبخاصة فى العالم الثالث — يقابل تحدياً جديداً هو مدى ما يستطيع أن يقدم من عطاء للمجتمع (١) .

هذه الذبذبات الحادة فى الصراع بين الدين والعلم لها فى المجتمع الأوربى — بخاصة — رواسب تاريخية لم تتوافر ظروفها الموضوعية عندنا . من أجل ذلك علينا ابتداء أن ندرك طبيعة الحياة الدينية فى ديارنا — بعامة — ومدى تشجيع الإسلام للبحث العلمى — بخاصة — والربط بين ذلك كله وتطوير المجتمع ، وعدّ هذا التطوير قربة إلى الله وواجباً على كل قادر .

ونستطيع أن نجمل مصادر المعرفة فى الإسلام فيما يلى(٢) :

---

(١) راجع فصلا إضافيا عن الدين فى القرن العشرين فى المرجع الآتى :
اللجنة الدولية بإشراف منظمة اليونسكو «تاريخ البشرية» المجلد السادس، القرن العشرون، الجزء الثانى (١) تطور المجتمعات الفصل السادس ص ٢٨٣ — ٣٥٠ ط . الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر — القاهرة ١٩٧١ .

(٢) محمد إقبال (١٩٥٥) فى دراسته روح الثقافة الإسلامية ص١٤٢— ١٦٧ . وفيها يناقش فى تفصيل وتحليل الوحى والكون والنفس والتاريخ .

أولا : الوحى ، وهو أسمى المصادر فى الإسلام ، وأول أمر إلهى فيه هو قول الله تعالى : « اقرأ » . وأول آلة أقسم بها الله فى القرآن هى « القلم » فقال : (ن . وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ) ، فالوحى فى الإسلام يدعو أول ما يدعو إلى العلم وسير الحياة .

ثانياً — التاريخ الإنسانى ، ويعده الإسلام ذخيرة وتراثاً ينبغى أن يكون بين أيدينا ، نستفيد من دروسه ونعرف سنن الله فيه . أو إذا شئت اصطلاحاً حديثاً « قوانين حركته » .

ثالثاً : النفس الإنسانية ، وكل ما يرتبط بالإنسان فى تكامله .

رابعاً : الآفاق أو الكون ، وفيها وفى النفس الإنسانية نقرأ قول الله تعالى : (سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِى الْآفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ)(١) .

وكأن دائرة المعرفة الإنسانية ودائرة العلم تصل بالإنسان إلى أوسع الآفاق والآماد : من أعماق ذاته إلى أبعاد الكون ، ومن جوف الأرض إلى الفضاء الخارجى . وإذا شئنا كلمة تجمع هذا كله وتطبيقاته وممارسته كانت « الحضارة » ، بكل محافظتها على الذات والشخصية ، وانفتاحها على آفاق المعرفة ، وربطها بين الإنسان وربه ومجتمعه ، وماضيه ومستقبله والعالم من حوله . وفى إطار هذه الحضارة ، وفى تناسق معها ، تعمل أجهزتها الإدارية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية . . كحركة الجسم الواحد . .

ولننتقل بعد هذا إلى دراسة جوانب من العلاقة بين الإسلام والإدارة .

---

(١) سورة فصلت : ٥٣ .

٦ – الإدارة وظيفة اجتماعية

وبين يدى وأنا أعدّ هذه الدراسة « كتاب التراتيب الإدارية والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التى كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية فى المدينة المنورة العلية »، وهو من تأليف السيد محمد الحسنى الإدريسى الكتانى الفاسى [١] .

وأرجو أن أقف وقفة قصيرة عند كتاب يحتاج منا إلى دراسة مستفيضة . فالمكتبة الإسلامية غنية بتراثها الإدارى [٢] . كتاب التراتيب الإدارية يحوى شرحاً وإضافات لكتاب « تخريج الدلالات السمعية » للخزاعى [٣] وهوعن النظم الإدارية الإسلامية . ويرجع الكتانى إلى نحو

---

(١) عبد الحى الكتانى : كتاب التراتيب الإدارية ، والعمالات والصناعات والمتاجر والحالة العلمية التى كانت على عهد تأسيس المدنية الإسلامية، فى المدينة المنورة العلية . ط . المطبعة الأهلية بالرباط سنة ١٣٤٦ هـ فى جزأين.

(٢) تراجع مقدمة التراتيب الإدارية لعبد الحى الكتانى وبها قائمة ممتازة للمراجع الإدارية . وراجع أيضاً مقدمة عبد العزيز عبد الحق للترجمة العربية لكتاب الإدارة العربية تأليف : س . ا . ق .. حسينى . ترجمة إبراهيم أحمد. ط الألف كتاب ٨٩ علوم إنسانية ص (هـ – و) .

وقائمة المراجع الملحقة بالكتاب مع إضافات وتعليقات للمراجع ص ٤٤٣ – ٤٦٢ .

(٣) على بن محمد الخزاعى : تخريج الدلالات السمعية على ما كان فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الحرف والصنائع والعمالات الشرعية .

وهناك دراسة قيمة عن كتاب الخزاعى فى مقدمة كتاب عبد الحى الكتانى (١٣٤٦هـ) عرض فيها تاريخ حياة المؤلف ومكانته ومشيخته ، ثم درس : كتاب تخريج الدلالات السمعية ومقصد المؤلف من تدوينه وتاريخ اشتغاله بذلك ومنهجه والأصول التى استمد منها ونقل عنها ، وبرنامجه فيه بالتفصيل. انظر مقدمة كتاب الكتانى من ص ٢٦ – ٧٤ .

مائة وخمسين مرجعاً إسلاميًّا ، أضاف منها إضافات أساسية إلى كتاب الخزاعى ، وأعطانا فى تسعمائة وخمسين صحيفة من القطع المتوسط صورة كاملة عن الحياة الإدارية فى مجتمع المدينة ونظم الحياة فيها حتى أصبح من أهم وثائقنا فى هذا الموضوع . وأرجو أن تتاح فرصة عرض ومناقشة هذا الكتاب فى لقاء مقبل إن شاء الله . . والذى أود تسجيله الآن أن الإدارة قديمة وأصيلة فى الإسلام .

وفى الاصطلاح الحديث نعرف أن الإدارة لها جانبان :

ـ الجانب المادى أو الآلى ، وهذا متعلق بالأنظمة والأجهزة .

ـ الجانب الأخلاقى .

وعمليًّا لا نستطيع أن نقيم مجتمعنا إلا إذا كان التطوير الإدارى فيه ماديًّا وآليًّا على أحدث الوسائل ، وأخلاقيًّا على أرفع المستويات التى نريدها .

والإسلام يعدّ الإدارة والقيادة وظيفة عامة . ولنضرب لذلك مثالا من حياة الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه :

عندما ولى الخلافة قال : « أيها الناس ، قد وليت عليكم ، ولست بخيركم ، فإن أحسنت فأعينونى ، وإن أسأت فقومونى . . »[1] ، من كلمته هذه يمكن أن نخرج بالقواعد الآتية :

١ ـ أن الإدارة والقيادة وظيفة وخدمة .

٢ ـ أنها من حق الأمة وهى التى تختار .

٣ ـ أن عمل الحاكم أو المسئول الإدارى خاضع للرقابة الشعبية .

ويصل أبو بكر إلى أبعد من هذا عندما يخاطبهم قائلا : لقد كنت أعمل لعيالى . وأنا الآن أعمل لكم ، فاجعلوا لى من بيت مالكم شيئاً . .

---

(١) أبو جعفر أحمد المحب الطبرى : الرياض النضرة فى مناقب العشرة . ١ : ١٧٧ ط . الخانجى (١٣٢٧هـ) مصر .

ففرضوا له كل عام مائتين وخمسين ديناراً، وكل يوم شطر شاة ، وما كسوه فى الرأس والبطن . . ولما وجد أن هذا لا يكفى عياله ، أصبح غادياً إلى السوق ، وعلى رقبته أثواب يتجر بها . فلقيه عمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب فقالا له : أين تريد يا خليفة رسول الله ؟ قال : السوق . قالا : تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال : فمن أين أطعم عيالى ؟

لقد أنفق أبو بكر أمواله فى خدمة الإسلام . ولم يرض أن ينفرد بتحديد نفقته الخاصة من بيت مال المسلمين وهو خليفة رسول الله . وإنما آمن أن هذا حق الأمة . فلما عجز القدر الضئيل الذى حددوه له عن أن يفى بحاجته قال لهما : لا حاجةلى فى إمارتكم. رزقتمونى ما لا يكفينى ولا عيالى !!

ولما عرضا عليه الزيادة كان رده : أنتما رجلان من المهاجرين لا أدرى أيرضى بها بقية المهاجرين أم لا .

وذهبوا جميعاً إلى المسجد . وارتقى أبو بكر المنبر وعرض الأمر كله على المهاجرين ووافقوا عليه . فقال أعرابى من جانب المسجد :

ــ لا والله ما رضينا . فأين حق أهل البادية ؟

فقال أبو بكر : إذا رضى المهاجرون شيئاً ، فإنما أنتم تبع [1] .

وفى هذا يقرر أبو بكر عدة مبادئ أخرى :

١ ــ أن عرض أى موضوع على الاستفتاء له حدود وأبعاد . .

٢ ــ أن الرأى المرجح هو لأهل الاختصاص وأدرى الناس بالموضوع المعروض .

وسنرى فى نموذج مقبل كيف كانت دائرة الشورى أوسع . وأن هذا يرجع إلى طبيعة الموضوع المعروض .

---

(١) الرياض النضرة ١ : ١٧٧ –١٧٨ .

٧ – العلاقة بين الوظائف القيادية

ويمكن من حياة أبى بكر فى خلافته وعلاقته بعمر بن الخطاب أن نعرض النموذج الآتى :

جاء رجلان من المؤلفة قلوبهم – وهم من سراة القوم الذين كان يتألف الرسول عليه الصلاة والسلام قلوبهم بشيء من الإكرام ليكفوا عن الإسلام أذى ، أو يجلبوا له نفعاً : والرجلان هما الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن الفزارى ، وقالا لأبى بكر :

– ياخليفة رسول الله ، إن عندنا أرضاً سبخة ليس فيها كلأ ولا منفعة فإن رأيت أن تقطعنا لعلنا نحرثها أو نزرعها ، لعل الله أن ينفع بها بعد اليوم ؟ فقال أبو بكر لمن حوله : ما تقولون فيما قالا ، إن كانت أرضاً سبخة لا ينتفع بها ؟ قالوا : نرى أن تقطعهما إياها لعل الله ينفع بها بعد اليوم . فأقطعهما إياها وكتب لهما كتاباً بذلك . قال: وأشهدا عمر ، وليس فى القوم . فانطلقا إلى عمر فوجداه قائماً يهنأ (يطلى) بعيراً له . فقالا : إن أبا بكر قال : اشهد بما فى هذا الكتاب ، فنقرأ عليك أو تقرأ ؟ فقال : أنا على الحال التى تريانى فإن شئتما فاقرآ وإن شئتما فانتظرا حتى أفرغ عليكما . قالا : بل نقرأ . فقرآ . فلما سمع ما فى الكتاب تناوله من أيديهما ومحا ما فيه . فتذمرا وقالا مقالة شينة . فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يتألفكما والإسلام يومئذ ذليل (أى ضعيف) ، وإن الله قد أعز الإسلام ، فاذهبا واجهدا جهدكما لا رعى الله عليكما إن رعيتما . قال فأقبلا إلى أبى بكر يتذمران فقالا: والله ما ندرى أنت الخليفة أم عمر ؟ فقال : لا ، بل هو لو كان شاء . قال فجاء عمر . وهو مغضب على أبى بكر فقال : أخبرنى عن هذه الأرض التى أقطعتها هذين . أرض هى لك أم للمسلمين عامة ؟ فقال : بل للمسلمين عامة . فقال : ما حملك على أن تخص بها هذين دون جماعة المسلمين ؟ قال :

استشرت هؤلاء الذين حولى فأشاروا على بذلك . قال : فإذا استشرت هؤلاء الذين حولك فكل المسلمين أوسعهم مشورة ورضاً ؟ فقال أبو بكر رضى الله عنه : قد كنت قلت لك إنك أقوى على هذا منى ولكن غلبتنى [١].

ومن هذا النموذج يمكن أن نخرج بالقواعد الآتية :

١ ــ أن دائرة الشورى وأخذ الرأى تضيق وتتسع بحسب طبيعة الموضوع المعروض . وأنها ــ فى بعض الموضوعات الحيوية ــ تصل إلى مستوى الاستفتاء العام .

٢ ــ أن التصرف فى أية قضية مطروحة مرتبط بالظروف المتغيرة التى تصاحب هذا التصرف . بمعنى أننا لانستطيع أن نفصل التصرف ــ إدارياً أو غير إدارى ــ عن ملابساته المكانية والزمانية والموضوعية المتغيرة .

٣ ــ أن المصلحة العامة لا تخضع خضوعاً أعمى لشكليات الإدارة من عدد الأصوات والأغلبية . وإنما ــ فى مثل هذه القضية المطروحة ــ يمكن إعادة النظر فى القرار الإدارى إذا ما كانت الإعادة من أجل مصلحة عامة . ومع أن أبا بكر علق إنفاذ القرار على موافقة عمر ، فإن شكليات الإدارة ــ فى بعض المفاهيم الحديثة ــ قد تقضى بصحة القرار فى غياب عمر بن الخطاب على أساس من قرار الأغلبية وحده .

٤ ــ أن العلاقات الإنسانية بين مستويات القيادة العليا كانت على درجة من المتانة والأصالة ، لا تستطيع معها أقوال السوء ونزعات الشر والتفرقة ، أن تحطم الجسور بين القائد المسئول ومن حوله من كبار المستشارين .

٥ ــ أن رد أبى بكر على المؤلفة قلوبهم كان فى جانب عمر بن الخطاب حتى قبل أن يسمع منه وجهة نظره . ولكن هذا لم يحل دون

---

(١) جمال الدين أبو الفرج بن الجوزى : تاريخ عمر بن الخطاب ص ٣٢-٣٣ تصحيح حسن الهادى حسين ط . صبيح القاهرة (بدون تاريخ) .

طرح القضية للبحث الحر من جديد أمام المسلمين جميعاً ، والانتهاء إلى الأخذ برأى عمر بن الخطاب ، وسنرى بعد هذا مدى الإجلال العميق الذى كان يكنه عمر فى قلبه للخليفة الأول ، وأن الخلاف فى وجهات النظر والحوار ، إنما كان يستهدف المصلحة العامة وحدها .

٨ ــ بين القيادة والقاعدة

ولننظر إلى علاقة المسئول الأول بالقاعدة وإنسانياتها :

قبل الخلافة كان أبو بكر يغدو فى الصباح من بيته إلى السوق ويبتاع ، وكانت له قطعة غنم تروح عليه . وربما خرج هو نفسه فيها . وربما كفيها فرعيت له . وكان يحلب للحى أغنامهم .

فلما بويع بالخلافة قالت جارية من الحى : الآن لا تحلب لنا منائح دارنا .

فسمعها أبو بكر فقال : بل لعمرى لأحلبنها لكم . وإنى لأرجو ألا يغيرنى ما دخلت فيه ، عن خلق كنت عليه .

فكان يحلب لهم . فربما قال للجارية من الحى : ياجارية . أتحبين أن أرغى لك أو أصرح (أى لا يكون للحليب رغوة) فربما قالت : ارغ . وربما قالت : صرح . فأى ذلك قالت فعل [1] .

وما نخرج به من هذا النموذج :

١ ــ الأصالة الأخلاقية التى كان عليها المسئول الإدارى الأول .

٢ ــ أن علاقاته الإنسانية ــ حتى بجوارى الحى والعاملين فيه ــ لم يطرأ عليها أى تغيير . وإنما كانت الخلافة عنده « خدمة عامة » تتسع فيها دائرة المسئولية لتكون على مستوى المجتمع كله ، وتكون مدعاة

---

(١) طبقات ابن سعد ٣ : ١٨٦ ط . بيروت ١٣٧٧ هـ ــ ١٩٥٧ .

إلى قوة الروابط لا انقطاعها أو انعزال المسئول عن قاعدته التى يعمل من أجلها .

٩ ـ التخطيط الشامل والتنفيذ

وإذا كنا نعدّ من أهم سمات القائد الإدارى الناجح القدرة على التصور الشامل والقدرة على التنفيذ والإبداع . . فإن هاتين السمتين تنبعان من أصل واحد ، هو النظرة الشاملة التى تستطيع أن ترى مستقبل المجتمع وتسعى على بصيرة نحو هذا المستقبل .

وأشد صعوبة من هذين أن يحتفظ بهما المسئول الإدارى مع المستوى الأخلاقى الكريم الذى يرعى الحقوق الإنسانية فى الاتصالات اليومية فى الوقت نفسه . وكان أبو بكر يجمع بين هذه القدرات .

كانت عنده اللمسات الإنسانية التى رأيناها فى عطفه على جوارى الحى ، وحرصه على علاقاته الإنسانية مع زملائه ، كما رأينا فى قصته مع عمر . . ولكن يبقى أروع نموذج لقدرة أبى بكر على التصور والتنفيذ — ما كان من أمره فى حروب الردة[1] .

ولنبدأ أولا بتقدير الموقف معتمدين فى هذا على أقوال كبار الصحابة :

١ ـ تقول السيدة عائشة رضى الله عنها : « لما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نجم النفاق ، وارتدت العرب ، واشرأبت اليهودية

---

(١) خورشيد أحمد فارق : تاريخ الردة . ص ١ من منشورات معهد الدراسات الإسلامية فى دلهى الجديدة : الهند ١٩٧٠ . والكتاب مقتبس ومهذب من كتاب الاكتفاء بما تضمنه من مغازى المصطفى ومغازى الخلفاء لأبى الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعى البلنسى أحد علماء القرنين السادس والسابع الهجريين فى الأندلس .

والنصرانية ، وصار المسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتية لفقد نبيهم ، حتى جمعهم الله على أبى بكر . فلقد نزل بأبى بكر ما لو نزل بالجبال الراسيات لهاضها . . . . » [1] .

٢ ـ ويجادل عمر بن الخطاب وأبو عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبى حذيفة ، أبا بكر ، ويقدرون الموقف قائلين عن العرب « فهم بين مرتد ومانع صدقة فهو مثل المرتد ، وبين واقف ينظر ما تصنع أنت وعدوك ، قد قدم رجلا وأخر أخرى » .

٣ ـ ويقدم على أبى بكر عيينة بن حصن الفزارى والأقرع بن حابس ـ من أشراف العرب ـ يساومونه على بعض المال ليكفوه من وراءهم من العرب ! ! ويعرض أبو بكر هذا الرأى فيقبله بعض من عنده قائلين : إنا اليوم قليل فى كثير ، ولا طاقة لنا بقتال العرب .

ولا ينفرد أبو بكر فى هذا الموقف التاريخى بقرار ، ولا يحمل من معه على تنفيذ أمر لا يؤمنون بجدواه ، وإنما يتابع معهم الحوار والمشورة :

ـ إنكم علمتم أنه كان من عهد رسول الله (ص) إليكم المشورة فيما لم يمض به أمر من نبيكم ولا نزل به الكتاب عليكم . وإن الله لن يجمعكم على ضلالة . وإنى أشير عليكم . فإنما أنا رجل منكم تنظرون فيما أشير به عليكم ، وفيما أشرتم به ، فتجمعون على أرشد ذلك ، فإن الله يوفقكم . وأما أنا فأرى أن ننبذ إلى عدونا فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر . وألا نرشو على الإسلام أحداً . وأن نتأسى برسول الله (ص) فنجاهد عدوه كما جاهدهم . والله لو منعونى عقالا لرأيت أن أجاهدهم عليه حتى آخذه . فائتمروا يرشدكم الله ، فهذا رأيى . وأما قدوم عيينة وأصحابه إليكم ، فهذا أمر لم يغب عن عيينة : هو راضه ثم جاله (أى فكر فيه ودبره) ، ولو رأوا ذباب السيف لعادوا إلى ما خرجوا منه أو أفناهم السيف . فإلى النار قتلاهم على حق منعوه وكفر » .

---

(١) تاريخ الردة ص ٤ .

واستبان وجه الحق أمام الناس ، وقالوا لأبى بكر : أنت أفضلنا رأياً ، ورأينا لرأيك تبع [١] .

وأرى أن أقف عند هذا الاقتباس الذى أورده سليمان الكلاعى البلنسى فى تاريخ الردة – لنرى القواعد التى أقرها أبو بكر فى هذا الموقف ، والمنهج الذى اتبعه فى الحوار والمشورة . . مرحلة الدراسة قبل اتخاذ القرار النهائى :

١ – لقد أعطى الفرص الواسعة لمن حوله لكى يقولوا رأيهم .

٢ – بل إنه استمع إلى أقوام من أشراف العرب ليس رأيهم عنده غير متهم .

٣ – وهو يعرض هذه الآراء « الانهازية » على أصحابه عرضاً موضوعياً .

وبذلك ألقى الأضواء القوية على الموقف من جميع نواحيه قبل أن يتخذ قراره .

٤ – وهو عند عرض وجهة نظره يؤكد أن الأمر فى هذا الموقف شورى ، ويحدد موقفه فى أثناء الحوار : « إنما أنا رجل منكم » ، ويؤكد فى نفوسهم معنى الثقة فيما ينتهون إليه من قرار : « إن الله لن يجمعكم على ضلالة » ، وإن الآراء بعضها أرشد من بعض ، ولكل وجهة نظر مسوغاتها . وهو يدعوهم إلى أن « يجمعوا على أرشد ذلك فإن الله يوفقكم » .

٥ – وهو حينما يبدى رأيه يحدد مواقف الانهازيين وأسلوب معاملتهم ، وحتمية الموقف الصلب الذى يستطيعون به الخروج من هذه الفتنة باتباع دقيق لما أمر به الله من أخذ الزكاة وتوزيعها على المستحقين بدون تهاون ، وقتال من كفر أو ارتد .

كانت حرباً خاضتها « الدولة والمجتمع » من أجل حق الفقير فى

---

(١) تاريخ الردة ص ٥ .

مال الغنى ، ومن أجل وحدة الكيان الإسلامى . ولنذكر أن أبا بكر كان وقتئذ فى الواحدة والستين من عمره . وأنه أنفذ فى حروب الردة أحد عشر جيشاً انطلقت من قاعدة الإسلام فى المدينة . والذى يعنينا منها إداريا هذه الحقائق :

١ ــ أنها كانت مقسمة تقسيماً علميًّا دقيقاً بحيث تغطى الجزيرة العربية على النحو الآتى :

(ا) ثلاثة جيوش فى جبهة نجد .

(ب) ثلاثة جيوش فى جبهة الخليج العربى .

(حـ) جيشان فى الجبهة الشمالية .

(د) جيشان فى الجبهة الجنوبية فى اليمن .

(هـ) جيش واحد فى الجبهة الجنوبية الشرقية فى ديار بنى سليم .

هذا مع تعاون بين هذه الجيوش ، ونقل القوات من جبهة إلى جبهة حسب ضغوط العدو واحتياجات المعركة .

٢ ــ أن قادة الجيوش جميعاً كانوا من المهاجرين ، وبقى هو فى المدينة بعد أن حارب بنفسه معركتين فى ليلة واحدة : اضطر إلى التراجع فى الأولى ، ولكنه عاد مرة أخرى فى الليلة نفسها لينتصر انتصاره الحاسم فى معركة ذى القصة . وآثر الصحابة بعد هذا أن يبقى فى مركز القيادة فى المدينة . وبقى معه نفر من الأنصار لحماية القاعدة ، وهى مدينتهم فى الوقت نفسه . ولا شك أنهم أخبر بها ، وأقدر على الدفاع عنها[1] .

٣ ــ ولكى نتصور ضخامة هذا العمل ، يكفى أن نذكر أن الجيش الثانى بقيادة عكرمه بدأ عمله فى اليمامة ، وتابع مسيرته إلى الخليج العربى ، ومنها إلى اليمن ، ثم عاد إلى المدينة . هذه المسيرة ــ طولا ــ مثل المسافة

---

(١) محمودة الدرة : تاريخ العرب العسكرى فى مجلد واحد . الجزء الثانى عن حروب الردة ص ٢٤٧ ــ ٢٨٨ والخريطة المرفقة أمام ص ٤٠٢ . وخريطة حسينى فى كتاب الإدارة العربية أمام ص ٤٣٨ .

بين المدينة وتونس مروراً بمصر وليبيا . أما عن عنف بعض المعارك وضراوتها فقد كانت غير مسبوقة فى المغازى الإسلامية . وكانت اختباراً قاسياً لمدى صمود قاعدة الإسلام فى المدينة ، وقدرتها على إعادة ربط الدولة الإسلامية التى تمزقت وحدتها بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام . فإذا أضفنا إلى ذلك الدعم الذى كانت تلقاه القبائل العربية المرتدة من الدول الكبرى المجاورة لها فى فارس والروم استطعنا أن نتصور الجهد الكبير المنظم الذى استطاع به أبو بكر ومن حوله من كبار الصحابة والمؤمنين أن يقودوا سفينة الإسلام ، فى موج كالجبال ، حتى تنتهى إلى المرفأ الآمن .

وإذا كانت « الشئون الإدارية » ودقتها أساساً فى نجاح أية معركة حربية فإن النموذج الذى بين أيدينا يتكامل مع نماذج سابقة ، لترينا دقة التنظيم الإدارى فى الحرب والسلام معاً .

١٠ — المجتمع العصرى

ونحن نقرأ فى القرآن الكريم قسم الله تعالى بالعصر . . بالزمن فى مسيرته وتدفقه كما يقسم بالفجر والليل والنجم . . وقد عرضنا علاقة هذا بمبدأ « الحركة » فى الإسلام ، وأن الإسلام يدعو كلاً منا على مستوى الفرد والمجتمع والدولة . . أن يعيش عصره وأن يحيط بمنجزاته ، حتى يستطيع أن يساهم فى الإضافة إليها .

ونرى فى حياتنا أن التنظيم الإدارى فى تكامل جوانبه المادية وأخلاقياته ، وقدرته على اكتساب الخبرة وتطبيقها ، وتطوير ذاته ، نرى فى هذا كله مؤشرات توضح مستوى العمل الإدارى .

ولنذكر نماذج لانفتاح المجتمع النبوى على العالم من حوله ، واستفادته من خبراته :

١ — ومن أبرز هذه النماذج مدى عناية المجتمع بتعلم اللغات الأجنبية ،

وقد عقد محمد الحسيني الكتاني باباً بعنوان : « الترجمان الذى كان يترجم لرسول الله صلى الله عليه وسلم [(١)] ، ثم قسم هذا الباب على أساس اللغات المعروفة فى المجتمع النبوى . وأعطى نموذجاً من زيد بن ثابت الأنصارى النجارى وكيف كان ترجمان الرسول (ص) بالفارسية والرومية والقبطية والحبشية ، تعلم ذلك بالمدينة من أهل هذه الألسنة .

٢ ــ ثم ذكر بعد هذا كيف أمره الرسول (ص) بتعلم السريانية والعبرية ، عندما دعت الحاجة إلى ذلك فى مجتمع المدينة .

٣ ــ ويستدل الكتانى على مكانة تعلم اللغات الأجنبية فى المجتمع بأن الإمام البخارى أدخل الترجمة فى باب الجهاد فى صحيحه ، لأن ذلك مما يحتاج إليه المسلمون مع رسل العجم وأمرائهم .

٤ ــ ولم تقتصر الخبرات العلمية على تعلم اللغات ، وإنما امتدت إلى البعثات العلمية يقوم بها أبناء المجتمع لاكتساب جديد يحتاجون إليه . وقد درس الكتانى الآلات الحربية وبخاصة آلات الحصار . ونقل عن ابن سعد فى طبقاته لدى الكلام عن وفد ثقيف : ولم يحضر عروة بن مسعود ولا غيلان بن مسلمة حصار الطائف . كانا بجرش يتعلمان صنعة العرادات والمنجنيق والدبابات . فقدما وقد انصرف رسول الله عن الطائف نصبا المنجنيق والعرادات والدبات [(٢)] .

المجتمع إذن لم يكن مغلقاً ولا منطوياً . . ولكنه كان مجتمعاً مفتوحاً على العالم من حوله يستفيد من كل خبراته ما استطاع إلى ذلك سبيلا .

٥ ــ ويصل تمجيد الخبرة التى يحتاج إليها المجتمع عند فقهائنا إلى درجة يعدونها فيه من فروض الكفاية ، التى إذا قام بها بعض القادرين عليها سقطت عن الباقين . وإذا قصر فيها هؤلاء آخذ الله على ذلك جميع القادرين على تحصيل هذه الخبرة . ولنضرب مثالا لذلك :

---

(١) عبد الحى الكتانى (١٣٤٦هـ) ١ : ٢٠٢ ــ ٢١٠ .
(٢) عبد الحى الكتانى (١٣٤٦هـ) ١ : ٣٧٤ ــ ٣٧٥ .

نفرض أن مجتمعنا يحتاج إلى نوعية معينة من المتخصصين فى التنظيم الإدارى ، وهذا التنظيم بدوره يحتاج إلى متخصصين فى الإحصاء الآلى واستخدام أجهزته الحديثة ، وأن إدارياتنا فى الجبهة الداخلية وقواتنا المحاربة وتطويرها تتوقف على توفير ذلك حتى نستطيع أن نقابل مسئولية بناء المجتمع وخوض المعركة ، فالإسلام فى هذه الحالة يعدّ هذه الدراسات « فرض كفاية » أى يجب أن يقوم به العدد الكافى من المتخصصين الذين يستطيعون القيام به . وإذا ما حدث تقصير فى ذلك ، آخذ الله جميع القادرين على التحصيل عن هذا الوضع الذى تركوا فيه مجتمعهم وهم قادرون على تطويره . . يقول ابن عبد البر الأندلسى :

« وقد أجمع العلماء على أن من العلم ما هو فرض متعين على كل امرئ فى خاصته بنفسه ، ومنه ما هو فرض على الكفاية إذا قام به قائم سقط فرضه عن أهل ذلك الموضع . . والذى يلزم الجميع فرضه من ذلك ما لا يسع الإنسان جهله من جملة الفرائض المفترض عليه » . ثم درس بعد هذا فرض الكفاية وقال : « وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى دينهم ودنياهم فهوفرض على الكفاية يلزم الجميع فرضه ، فإذا قام به قائم سقط فرضه عن الباقين لا خلاف بين العلماء فى ذلك . وحجتهم فيه قول الله تعالى :

﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِى الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[1] .

فألزم النفير فى ذلك البعض دون الكل ، ثم ينصرفون فيعلمون غيرهم .

---

(١) سورة التوبة : ١٢٢ .

والطائفة فى لسان العرب، الواحد فما فوقه .. وكذا الجهاد .. فإذا أظل العدو بلدة لزم الفرض حينئذ جميع أهلها وكل من قرب منها ، إن علم ضعفها عنه وأمكن نصرتها لزمه فرض ذلك أيضاً » (١).

ويرتبط بإنقاذ الوطن هنا كل ما يرتبط بالمعركة ، فتكون الأمة فى حشد كامل يبذل فيه كل قادر ما يستطيع من جهد فى مجال تخصصه، مع تنسيق وتكامل بين هذه الجهود جميعاً وكفاية تستطيع أن تصعد بها إلى مستوى المسئولية الملقاة على عاتقها. إن الإسلام يرى هذا فرضاً دينياً، كما أنه فرض وطنى .

فالعلم هنا للمجتمع ، والإدارة للمجتمع ، والدراسات ليست نوعاً من الترف العقلى ، وإنما ينبغى أن ينتظمها تخطيط شامل ، يراعى احتياجات المجتمع ويحددها بدراسات علمية موضوعية ، ثم يضع لها أولوياتها ، ويتولى تنفيذها ومتابعة هذا التنفيذ .

١١ ــ الحصاد

وفى نهاية هذه الدراسة أود أن أعرض وصية الخليفة الأول أبى بكر الصديق رضى الله عنه . لقد رأينا كيف استقبل الخلافة، وكيف عاش فيها ، وعلاقاته مع أصحابه وجمهور المسلمين ، ومواقفه الصلبة من أجل حماية المجتمع . فعندما حضرته الوفاة دعا ابنته ــ أم المؤمنين عائشة رضى الله عنها ــ وقال لها :

---

(١) أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبى الأندلسى : جامع بيان العلم وفضله ، وما ينبغى فى روايته وحلمه ١ : ١٠ – ١١ ط . المنيرية بالقاهرة (بدون تاريخ) وفى هذا الكتاب دراسة مستفيضة عن مكانة العلم فى المجتمع . وانظر أيضا القسم العاشر من كتاب التراتيب الإدارية للكتانى (٢ : ١٦٨ – ٤٤٦) . فى تشخيص الحالة العلمية على العهد النبوى .

« يا عائشة : لقد ولينا أمر المسلمين ، فما استبقينا لأنفسنا من مالهم شيئاً . لقد أكلنا من جريش طعامهم فى بطوننا . ولبسنا من خشن ثيابهم على ظهورنا ، وما بقى عندى من مال المسلمين إلا هذا البعير الناضح ، وهذا الخادم، وهذه القطيفة الجرداء . فإذا مت فابعثى بها إلى عمر فإنى لا أحب أن ألقى الله بشىء من مال المسلمين » . ومات أبو بكر وجاء من بيته ما أمر به . فأمر عمر بن الخطاب بضمها إلى بيت المال . واعترض على هذا عبد الرحمن بن عوف وكان حاضراً . فكان رد عمر : والله ما خالفت أبا بكر حيّاً لأخالفه ميتاً . للموت أقرب إلى نفسى من مخالفته حيّاً وميتاً .

ثم يكى وهو يقول : رحم الله أبا بكر لقد أتعب من جاءوا بعده(١) .

صنع أبو بكر هذا وقد رأى كيف فارق رسول الله (ص) دنيانا : فعن عمرو بن الحرث قال : ما ترك رسول الله (ص) عند موته ديناراً ولا درهماً ولا عبداً ولا أمة ولا شيئاً ، إلا بغلته البيضاء التى كان يركبها وسلاحه ، وأرضاً جعلها لابن السبيل صدقة(٢) .

يصنع الرسول (ص) هذا فى حين أنه ينصح سعد بن أبى وقاص — وينصح المجتمع معه: « إنك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تذرهم عالة يتكففون الناس ، وإنك لن تنفق نفقة تبتغى بها وجه الله إلا أجرت عليها »(٣).

(١) أبو الفرج بن الجوزى : تاريخ عمر بن الخطاب ص ٣٨ — ٣٩ .
(٢) رواه البخارى عن عمرو بن الحرث . انظر مشكاة المصابيح للتبريزى ٣ : ٢٠٩ رقم ٥٩٦٥ .
(٣) متفق عليه . انظر مشكاة المصابيح للتبريزى ٢ : ١٥٥ رقم ٣٠٧١.

خاتمة

بعد هذه الرحلة فى العلاقة بين الإسلام والإدارة أود أن أعرض النتائج الآتية :

١ــ أن العمل الإدارى ــ بطبيعته ــ يرتكز على قيم سلوكية. والدين فى مجتمعنا أقوى ركيزة أخلاقية . بهذا عشنا ، وعلى هذا نص دستورنا عندما تحدث عن الإسلام ديناً رسمياًّ للدولة ، ومصدراً أساسياًّ للتشريع ، وقواماً لحياة الأسرة .

٢ ــ فى ديننا ثروة غنية من الأصول التى نستطيع أن نرفع بها حياتنا إلى أفق أعلى وأرحب . فالإسلام جاء مصدقاً لكل نبى ورسول ، متمماً مكارم الإخلاق ، منادياً بالإحسان والإتقان فى كل شىء .

٣ ــ نظرة الإسلام إلى الحياة نظرة شاملة تضم الدنيا والآخرة ، المسجد والمجتمع ، ويعد العلم وطلبه ــ فى كل آفاقه التى يحتاج إليها المجتمع ــ عبادة وواجباً .

٤ ــ العملية الإدارية فى الإسلام جزء من كل متناسق ، يقوم على الكفاية الآلية والمستوى الأخلاقى والتنظيم .

٥ ــ العمل الإدارى فى الإسلام خدمة عامة وتكليف : بدءاً من الخلافة عن رسول الله (ص) كما رأينا فى دراستنا لأبى بكر رضى الله عنه ، حتى أبسط وأصغر الواجبات فى المجتمع .

٦ ــ العمل الإدارى خاضع لمراقبة الشعب ومتابعته وتقييمه على قواعد علمية أخلاقية .

٧ ــ الشورى والحوار أساس فى التنمية الإدارية ، ولها مسارها الأفقى بين النظراء ومسارها الرأسى بين مستويات المسئولية والتنفيذ على الصعيدين المركزى والمحلى .

٨ ـــ فتح المجال أمام الكفايات والاستفادة من الخبرة العلمية أساس في المجتمع الإسلامي .

٩ ـــ الصلة بين الأجيال المتتابعة من المسئولية الإدارية قائمة على عرفان الجميل لا الهدم وتشويه الجهد المبذول .

١٠ ـــ وبهذا تصبح التنمية الإدارية تعاوناً بين مستويات إدارة وأجيال وقيادات متتابعة ، وإثراء بكل خبرة جديدة ، وتشجيعاً لكل موهبة ، في إطار من أخلاقيات دعانا إليها الإسلام لنبني مجتمع العلم والإيمان .

الفصل الخامس

القيم الروحيّة والمبادئ الأخلاقية في تربية الشباب العربي

بحث مقدم إلى مؤتمر الشباب العربى الذى عقدته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم بجامعة الدول العربية.
المؤتمر الثقافى العربى التاسع بالقاهرة من ١٢ - ٢١ / ١٢ / ١٩٧٠ وثيقة رقم ١٣ .

١ ـ ما المقصود بالقيم الروحية ؟

أودّ بين يدى هذا الحديث أن نتفق أولا على مفهوم القيم الروحية . فكثيراً ما يتطرق إلى الذهن أنها مقابلة للأوضاع المادية فى الحياة . ولعلّ شيئاً من ذلك جاء إلينا من حضارات وفدت إلى بلادنا ، وحملت إلينا صوراً من الصراع بين الروح والمادة ، وبين الدين والحياة ، وبين رجال الدين ورجال العلم ، فلم يجد العلم أمامه فى زحفه المستمر ـ فى بعض الأقطار ـ إلاّ أن يُنَحِّى جانباً الدين ورجاله ، تنحية كاملة أو جزئية ، وأن يحاول إقامة الأساس الأخلاقى أو التعامل فى المجتمع على غير أساس من الدين وما جاء به من قيم ومبادئ .

وإذا كان حديثنا عن القيم الروحية والمبادئ الأخلاقية محصوراً فى دائرة تربية الشباب العربى ، فإن هذا الحديث لا يمكن عمليًّا ولا موضوعيًّا فصله عن تيارات الفكر العالمى ، ونحن نعيش فى منطقة تمثل قارة وسطى بين قارات العالم القديم ، وملتقى حضارات من طبيعتها الأخذ والعطاء من قديم . فكيف ونحن نعيش فى عالم أصبح كالصندوق الرنان تتردد على سطحه أية طرقة تصيب جزءاً منه ، والأخبار فيه عند أطراف الأصابع ، تحرك موجات المذياع أو قنوات التليفزيون ، وتصل إلى قلب الصحراء وأعماق الغابات ، وأعالى البحار ، بل أصبح الاتصال الآن مع الفضاء الخارجى ، تتحرك فيه الأقمار الصناعية على كوكب الزهرة من محطات على كوكبنا الأرضى . .

وأنت وسط هذه التيارات الفكرية التى تموج بها الحياة وتموج بالحياة ، وسط هذا التدافع المستمر والفيضان الذى يحمل الاتجاهات من أرجاء الأرض كافة ليجرى بها فى نهر الحياة المندفع إلى الغد . .

أنت وسط هذا كله تحاول أن ترصد الشباب العربى ودور القيم الروحية والمبادئ الأخلاقية فى تربيته .

ولن أحاول فى هذا الحديث أن أرتقى منبر الوعظ ، ولا أن أردّد وصايا ، ولا أن أضع نصائح تعودنا فى طفولتنا أن نجدها على ظهر كراسات الدرس داعية إلى الإيمان والصدق والنظافة . . وإنما سأحاول أن نسير معاً فى هذا الحديث صديقين يدخلان المكتبة أحياناً ويفتحان القاموس أحياناً ، ويلجان دروب التاريخ ، ويطالعان بعض صفحات النفس الإنسانية العربية بما فيها من جوانب قوة وضعف ، ويحاولان معاً — بدلا من أن يلعنا الظلام — أن يوقدا فيه شمعة ، وأن يضيفا ولو حجراً واحداً إلى البناء ، ولو كلمة واحدة طيبة ، إلى سفر التربية العربية .

وأعود معك إلى المقصود بالقيم الروحية . ونرى كيف جاءت مادة « روح » فى كتاب الله الكريم « كتاب العربية الأكبر » .

١ — جاءت الروح فى القرآن الكريم بمعنى القوة أو السر الذى به الحياة (وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلا)(١). وهذه القوة أو السر أمر مشترك بين الناس جميعاً . . بل بين الإنسان وكل حى . ولا يمكن أن يكون هذا المعنى هو المقصود بالقيم الروحية .

٢ — وجاءت بمعنى الملائكة أو صنف منهم وذلك فى قوله تعالى : (تَنَزَّلُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ . سَلَامٌ هِىَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ)(٢). وقد قصد بها جبريل

---

(١) سورة الإسراء : ٨٥ . (٢) سورة القدر : ٤ ، ٥ .

عليه السلام . وذلك في قوله تعالى عن القرآن الكريم : (نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ)[١].
وواضح أن حديثنا فى القيم الروحية ليس عن الملائكة : أحدهم أو صنف منهم .

٣ ــ وقد يقصد به سيدنا عيسى عليه السلام . وذلك قول الله تعالى : (وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ)[٢] ، وحديثنا ليس عن نبي واحد وإنما عن قيم روحية .

٤ ــ نأتى بعد هذا إلى معنى رابع يبينه قول الله تبارك وتعالى : (وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا ، مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ ، وَلَٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُوراً نَهْدِي بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا ، وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ . صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمواتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ)[٣].

ويذكر الإمام القرطبي[٤] فى تفسير هذه الكلمة أنها « النبوة

(١) سورة الشعراء : ١٩٣، ١٩٤ .
(٢) سورة النساء : ١٧١ .
(٣) سورة الشورى : ٥٢ ، ٥٣ .
(٤) تفسير القرطبى١٦ : ٥٤ — ٥٥ .

والكتاب والقرآن .. لأن فيه حياة من موت الجهل .. وكان مالك بن دينار يقول : يأهل القرآن ، ماذا زرع القرآن فى قلوبكم ؟ فإن القرآن ربيع القلوب . كما أن الغيث ربيع الأرض » .

(رُوحاً مِنْ أَمْرِنَا) . . . هى الأوامر والنواهى الإلهية ، وهى نور الطريق : (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ ، والَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)[1].

والقيم الروحية بهذا ليست أمراً مقابلا للمادة ، ولا بعيدة عن واقع الحياة اليومية. وأنت لا تستطيع أن تتصور الصدق إلا فى إنسان صادق ، والوفاء إلا من إنسان وفىّ .. الصدق ليس قيمة تنشأ فى فراغ .. إنها معاناة فى الحياة وصبر على اختباراتها ومواقفها ، ويوضح هذه المعاناة وإيجابياتها فى الحياة قول الرسول عليه الصلاة والسلام : عن ابن مسعود رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدى إلى الجنة . وإن الرجل ليصدق ، ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً . وإن الكذب يهدى إلى الفجور . وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب ويتحرى الكذب حتى يكتب عند الله كذاباً »[2].

بل إن هذه القيم — بعد المعاناة — تستقر فى النفس حتى تصبح لها طابعاً ، وإلى هذا المعنى نستطيع أن نرى توجيه الرسول (ص) لنا :

---

(١) سورة البقرة : ٢٥٧ .

(٢) أخرجه الستة إلا النسائى : انظر تيسير الوصول للشيبانى — ٢ : ٣٢٠ ط . الحلبى .

« دع ما يريبك إلى ما لا يريبك ، فإن الصدق طمأنينة ، والكذب ريبة »[١] . لابد إذن أن ترتبط هذه القيم بواقع الحياة اليومية ، وأن يكون من الفرد والجماعة المعاناة والمصابرة حتى تصبح قوالب سلوكية .

٢ — كيف ترتبط القيم الروحية بالحياة ؟

وإذا كان هناك هذا الارتباط بين القيم الروحية والحياة ، فلنحاول معاً أن نرى جوانب هذا الترابط :

١ — أنها تحدد المستوى الأخلاقى فى العمل ، مهما تكن طبيعة العمل الذى يقوم به الإنسان فى خدمة مجتمعه :

من ناحية السلطة مثلا يتعامل الفرد منا مع رؤساء وزملاء ومرءوسين وبين يديه مصالح أناس ، منهم من يستطيع مراجعته ، ومنهم من يصعب عليه أن يتخذ إلى المراجعة سبيلا . وأفضل أخلاق الإنسان ما يظهر مع من لا يستطيع مراجعته . . وفى هذا الضوء نستطيع أن ندرك أبعاد قول الرسول عليه الصلاة والسلام : « دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض حتى ماتت »[٢]. فالهرة لن تستطيع الدفاع عن نفسها . وفى هذا الموقف تتجلى أخلاق الإنسان على حقيقتها .

٢ — أنها تدفع الإنسان إلى أن يعمل : ذلك لأن هذه القيم — فى حياتها — مواقف فى الحياة . والارتباط قوى فيها بين الكلمة والفعل . ويذكر الإمام ابن كثير الدمشقى فى مقدمة تفسيره عن ابن مسعود قال :

---

(١) جزء من حديث رواه أبو الجوزاء عن الحسن بن على عن رسول الله (ص) . أخرجه الترمذى وصححه والنسائى . انظر تيسير الوصول ٢ : ٣٢٠ .

(٢) الحاكم عن أبى هريرة : انظر الجامع الصغير للسيوطى ١ : ١٥ ، ورواه البخارى عن ابن عمر .

كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن . وقال أبو عبد الرحمن السلمى : حدثنا الذين كانوا يقرئوننا أنهم كانوا يستقرئون من النبي عليه الصلاة والسلام . وكانوا إذا تعلّموا عشر آيات لم يخلفوها حتى يعملوا بما فيها من العمل ، فتعلمنا القرآن والعمل جميعاً[١] .

وهذا الربط بين الكلمة والفعل هو الذى يجعل الكلمة خلاقة ولوداً يجعلها أمّاً لأعمال كثيرة . ولعل من أشد ما نعانى منه : عقم الكلمات وعقم القرارات . عقمها عن أن تلد أعمالاً عظيمة .

وهذا الانفصال بين الكلمة والقول والعقل حذرنا منه ربنا فى قوله : (يَـٰأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ . كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ . إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُمْ بُنْيَانٌ مَرْصُوصٌ)[٢] .

بل إن ربنا ينهانا عن التراخى فى أداء العمل ، ويعدّه من صفات المنافقين فى قوله : (وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَارِهُونَ)[٣] .
ويعرض القرآن بعد هذا وصفاً للانفصال فى المنافقين بين القول

---

(١) تفسير ابن كثير : ١ : ١ — ٢ ط . مصطفى محمد ، القاهرة .
(٢) سورة الصف : ١ — ٤ .   (٣) سورة التوبة : ٥٤ .

والفعل فيقول : (وَيَحْلِفُونَ بِاللهِ إِنَّهُمْ لَمِنْكُمْ ، وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ . لَوْ يَجِدُونَ مَلْجأً أَوْ مَغَارات أَوْ مُدَّخَلاً لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وهُمْ يَجْمَحُونَ)(١) .

ويصل الترابط بين الكلمة والعمل متمثلا فى موقف نبيل ، إلى أفق رفيع نراه فى كلمة للإمام على كرم الله وجهه :

قيل له فى بعض الحروب : « إذا جالت الخيل أين نطلبك ؟ قال : حيث تركتمونى »(٢).

٣ ـ أنها تحول بين الإنسان والانحراف : ونماذجها كثيرة فى قصص الأنبياء :

(ا) بدءاً من قصة ابنى آدم : (إِذْ قَرَّبَا قُرْبَاناً فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَال : لَأَقْتُلَنَّكَ . قَالَ : إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ . لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي ما أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ، إِنِّي أَخَافُ

---

(١) سورة التوبة : ٥٦ ، ٥٧ .

(٢) أى أنه ثابت فى مكانه الذى اختاره فى الموقعة لا يتركه مهما اشتد به البأس .

انظر : على الجندى وآخرين : سجع الحمام فى حكم الإمام ، ص ١٧٥ ط . الأنجلو ، عن ابن أبى الحديد ، وفى الألف المختار .

اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ . إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَٰلِكَ جزَاءُ الظَّالِمِينَ)(١).

(ب) مروراً بقصة النبي الشاب الطاهر يوسف عليه السلام مع امرأة العزيز : (قَالَ مَعَاذَ اللهِ إِنَّهُ ربِّى أَحْسَنَ مَثْوَاىَ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُون)(٢). وقوله تعالى على لسان يوسف : (رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ ، وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ . فَاسْتَجَابَ لَهُ رَبُّهُ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ)(٣).

(حـ) وهى قيم تعلو فوق إغراء الحياة تطلعاً إلى ثواب الآخرة فى قوله تعالى عن امرأة فرعون : (وَضَربَ اللهُ مَثَلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا ، امْرَأَةَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ : رَبِّ ابْنِ لِي عِنْدَكَ بَيْتاً فِى الْجَنَّةِ وَنَجِّنِى مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِى مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ)(٤).

---

(١) سورة المائدة : ٢٧ — ٢٩ .
(٢) سورة يوسف : ٢٣ .
(٣) سورة يوسف : ٣٣ ، ٣٤ .
(٤) سورة التحريم : ١١ .

(د) وتطبيقاتها كثيرة عبر التاريخ فى قصص الأنبياء والمصلحين فى مستوى القيادات والقواعد ، كما سنرى فى ثنايا هذا البحث .

فالقيم الروحية بهذا هى :

١ ــ الحافظ للمستوى الأخلاقى

٢ ــ والدافع إلى العمل .

٣ ــ والمانع دون الانحراف

٣ ــ ولكن : لماذا قام الصراع بين القيم الروحية والجوانب المادية والعلم ؟

فى تراثنا العربى لقاء دائم بين الروح والمادة .. وهما جانبان من جوانب « الحياة » ؛ وفى الرجوع إلى نصوص القرآن الكريم ما يوضح أن « الحياة » هى ما يعنى به الدين . جاء القرآن لينذر من كان حياً .

والدين حياة الإنسان : (أَوَ مَنْ كَانَ مَيْتاً فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِى بِهِ فِى النَّاسِ كَمَنْ مَثَلُهُ فِى الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِنْهَا ، كَذَلِكَ زُيِّنَ لِلْكَافِرِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)(١) .

بل إن الروح بنص القرآن الكريم : (مِنْ أَمْرِ رَبِّى . وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلا) (٢) .

---

(١) سورة الأنعام : ١٢٢ .

(٢) سورة الإسراء : ٥٨ .

والدين كما يصوره القرآن « علم » . وأولو العلم هم أولى الناس بالايمان . وإلى هذا يذهب قول الله تعالى : (شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِماً بِالْقِسْطِ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ) .

ومكانة العلم فى القرآن والدعوة إليه وتقدير أهله وجعله سبيلا إلى الإيمان أوضح من أن نعيد القول فيها[١] .

وطلب العلم والرحلة من أجله وآداب العلم والتعليم .. كلها موضوعات لها فى تراثنا مكانة كبيرة [٢].

صحيح أن بعض علمائنا لاقوا عنتاً من أجل آراء قالوا بها : كما فى محنة الإمام الجليل أحمد بن حنبل ومن قبله الإمام مالك رضى الله عنهما .

ولكن الصورة العامة فى العلاقة بين الدين والحياة ، وبين العلم والدين ، وبين القيم الروحية والواقع ، تظل فى عهود الازدهار فى أرضنا صورة مشرقة بجمال القواعد والنماذج التطبيقية معاً .

ونحن لا نريد أن نعطى تاريخنا ذلك اللون الوردى الذى يبعد بنا عن أرض الواقع ، ولا أن نصور البشر فيه جيلا من الناس يخلو من التناقضات الفردية والاجتماعية . ولكن على أساس من الدراسة المقارنة

---

(١) سورة آل عمران : ١٨ .

(٢) يراجع للكاتب أبحاث : الإسلام والعلم ، والإسلام والتطور فى كتاب « الدين والحياة » الجزء الأول من ص ٧ إلى ص ٤٨ . من مطبوعات الاتحاد الاشتراكى العربى . القاهرة ١٩٦٧ .

(٣) يراجع على سبيل المثال : ابن عبد البر القرطبى : جامع بيان العلم وفضله . وهذا الكتاب من خير ما كتب فى منزلة العلم فى الإسلام والصفات التى ينبغى توافرها فى العالم فى التحصيل والعلاقة بالمجتمع .

نستطيع أن نجد فى حضارتنا جوانب لم تسعد بها حضارات فى أقاليم أخرى ، فى حرية التعبير والرأى ، وقلة المصادمات بين القيم الروحية التى يعيش بها المجتمع والآفاق الجديدة من التطور التى تتفتح أمامه .

وفى عهود ازدهار حضارتنا كان الفارّون من عسف حكامهم يلجئون إلى أرضنا : لجأ النساطرة فراراً من عسف الرومان إلى بلاد فارس ، فاستقروا فى الرها ، ومارسوا عبادتهم ، وعكفوا على علومهم ، ووفر لهم المجتمع الإسلامى بعد هذا أسباب الحياة المطمئنة . بل إن اليهود عندما اشتد بهم البطش الأوربى لجئوا إلى المشرق والمغرب العربى ، ووجدوا فى أرض العروبة والإسلام ما يسعهم رحمة وبرًّا ، ووجدوا طريقهم إلى الوظائف العامة . ومع أن الصهيونية العالمية ضربت على يد الخير العربية الإسلامية التى آست جراح اليهود ، وزرعت فى قلب الوطن العربى خنجراً مسموماً تمثله إسرائيل ، وأشاعت الخراب والدمار فى أرض بارك الله فيها ، وامتدت بالنيران إلى المسجد الأقصى وبالعدوان على الأرض .. فإن حقيقة كبيرة فى تاريخنا تبرز فوق الجراح والآلام هى عظمة القيم الروحية التى عاشت بها أرضنا عبر التاريخ : تتمثل فى السلم والحرب ، وتعدل فى الغضب والرضا : (يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا . اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ)[1] .

ولم يحاول رجال الدين عندنا أن يتناولوا النصوص الدينية ويفسروها

---

(١) سورة المائدة : ٨ .

تفسيراً حرفيًّا متحدين في هذا الحقائق العلمية : وهذا هو الطريق الوعر الذى سار فيه بعض رجال الدين فى أوربا ، فحفروا أخدوداً عميقاً بين العلم والدين . أخدوداً ألقوا فيه بزهرة من رجال العلم ، وأعطوا الدين طابعاً ليس من جوهره ، وأدوا بهذا إلى تمزق نفسى عانت منه أجيال وشعوب ، وأورثت اختلافاً وفرقة .

ولقد أثر هذا الخط الفكرى فى مجرى التاريخ الأوربى زهاء خمسة عشر قرناً[١] ووفدت آثار من هذه العداوة أو على الأقل الجفوة بين الدين والعلم إلى ديارنا ، عندما قوى احتكاكنا بأوربا فى القرن التاسع عشر الميلادى .

ولقد حدث هذا فى فترة من فترات الضعف والانحسار الإسلامى .. فى حين كان المد الأوربى عالياً متقدماً .. ونسينا — أو نسى بعضنا — ما بين يديه عندما جذبت عينيه الأضواء الجديدة فى أرض الغرب .

نسينا أو تناسينا مكانة العالم فى الحياة ، ومكانة القيم فى حياة العالم والمجتمع معاً . نسينا أن هذه الأرض هى التى اختارها الله — والله أعلم حيث يجعل رسالته — لتكون الرباط مع السماء ، وأهلها الأمة الوسط . ومن أبنائها من نزل عليه وحى الله . ومن صعد إلى السماوات العلا .. وأن هذه الأرض وهذه الأمة بمقوماتها كانت المنطلق لدعوات الأنبياء بدون عصبية لونية أو إقليمية أو طبقية : الناس لآدم ، وآدم من تراب ، وليس لعربى فضل على عجمى إلا بالتقوى .

ليست هناك فى تاريخنا دماء بين الروح والمادة ، ولا بين العلم والدين .. إلا نقطاً متناثرة كأنها علامات التحذير من الوقوع فى الخطأ نفسه .. رجل العلم فى تاريخنا على دين .. ورجل الدين يخدم العلم ..

---

(١) جلال مظهر : الحضارة الإسلامية من ص ٣٦ إلى ص ٦٥ ط . مركز كتب الشرق الأوسط . القاهرة .

وقيم الروح ومبادئ الأخلاق أساس مشترك للحياة بدون فيصل بين الأخلاق العامة والخاصة ، ولا بين الكلمة والعمل .

٤ ـ مصادر القيم الروحية :

ولقد وسع تراثنا كل الأرض ليجعل منها مصادر للقيم الروحية ومبادئ للأخلاق الفاضلة ..

وأنت إذا رجعت إلى القرآن الكريم وجدته كتاباً إنسانياً شاملا لا يقتصر على حياة جيل من الناس أو قطر من الأرض . .

١ ـ كتاب له امتداده الزمنى الذى يعود بك إلى النشأة الأولى .. بل يعود إلى خلق السموات والأرض ، ويتابع معك الرحلة عبر الحياة إلى الجزاء الأخروى : (يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمٰوَاتُ . وَبَرَزُوا لِلّٰهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ) (١) .

٢ ـ وله امتداده المكانى : وإذا كان الله تبارك وتعالى قد أنزله بلسان عربى مبين ، فإنه لا يقتصر على أخبار العرب ، وإن أعطى أنبياءهم جانباً من عنايته : إسماعيل وهود وصالح ، ومحمد ـ عليهم جميعاً من الله صلاة وسلام ـ وعبر بعنايته حدود العالم العربى ، فقص علينا أخباراً نسمع فيها قول الله عن ذى القرنين : (حتى إذا بلغ مطلع الشمس) ، و(حتى إذا بلغ بين السَّدَّيْن) .. هذا الاتساع المكانى يوحى إلينا بالتماس العبرة حيث نجدها : من مطلع الشمس ومغربها .

---

(١) سورة إبراهيم : ٤٨ .

٣ – وهو يقص علينا قصصاً فى موضوعات متنوعة المناشط اقتصاديًّا وتخطيطيًّا كقصة يوسف ، وإنشائيًّا كما فى قصة ذى القرنين ، ودفاعاً عن العقيدة وتأصيلا لها كما فى قصص نوح وإبراهيم ومن جاء بعدهما من الأنبياء ، ودفاعاً عن حق الفقير ومحاربة الاستغلال كما فى قصة شعيب ، وتنظيماً للسلم وبناء المجتمع ، وللحرب ودفاعاً عن الحق ، كما فى قصة النبى عليه الصلاة والسلام ، وصبراً على الأذى ممن جاءهم الحق كما فى قصة موسى مع بنى إسرائيل ، ودعوة إلى الحق وتصديقاً به كما فى قصة عيسى عليه الصلاة والسلام .

هذه جوانب ثلاثة من التكامل الزمنى والمكانى والموضوعى نراها فى القرآن الكريم خاتم الكتب السماوية التى نزلت فى أرضنا . وفيه يخاطب الله رسوله موجهاً هذه الأمة :

(قُولُوا آمَنَّا بِاللهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)(١) .

وهذا الانفتاح الزمانى والمكانى والموضوعى فى مصادر القيم الروحية ومبادئ الأخلاق يزداد ثراء وخصوبة بأن تراثنا الدينى لا يقتصر على طبقة واحدة أو طائفة من الناس فيجعلها القدوة والأسوة .

---

(١) سورة البقرة : ١٢٦ .

٥ ـــ أبطال مجهولون :

والقرآن يعطينا مجموعة من القصص عن أبطال مجهولين لا نعرف أسماءهم ولا نعرف ديار بعضهم يقيناً ، ولم يعن القرآن الكريم بتركيز الأضواء على عامل الزمان والمكان فى هذه القصص ولا على ذكر أسماء الأبطال .

وهذه نقطة فى مصادر القيم الروحية تحتاج منا إلى وقفة طويلة ، قد لا تتسع لها هذه الدراسة . ولكن أود أن أؤكد حقيقة كبيرة : هى أن القرآن الكريم ليس مجرد تاريخ نبوات ورسالات بالمعنى الضيق لهذا المفهوم . ولكنه يعرض لنا قصصًا عن أبطال مجهولين ظهروا مناصرين للرسل وللرسالات والحق حيث كان .. أبطال من القاعدة ، من عرض الناس يقفون الموقف النبيل دفاعاً عن الحق .. منهم من يلاقى الموت ، ومنهم من ينجو ليؤكد أن هذا البطل المجهول كان يستهدف الحق وحده مهما تكن نتيجة موقفه :

١ ـــ هناك نموذج انفرد به القرآن عن مؤمن آل فرعون . وقد جاء هذا الموقف متصلا فى سورة غافر ابتداء من قوله تعالى :

(وَقَالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ : أَتَقْتُلُونَ رَجُلاً أَنْ يَقُولَ رَبِّىَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ)(١) إلى قوله تعالى : (إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ) .

---

(١) سورة غافر : ٢٨ — ٥١ .

وفى القصة حوار خصب بين هذا المؤمن المجهول والذين قاوموا الحق ووقفوا فى صف الطغيان . ولكن ما اسم هذا البطل المجهول ؟ لا ندرى . والذى نحسه فى هذه القصة من القرآن الكريم تأكيد بطولة مجهولة تكون نوراً لكل بطل مجهول . وما أحوجنا إلى هذه الأنوار تضىء الطريق لكثيرين يعملون من أجل العروبة والحق لا تطّلع على أعمالهم إلا عين الله التى لا تغفل ولا تنام .

٢ ـ وهناك نموذج آخر نقرؤه فى سورة يس عن ذلك البطل المجهول الذى جاء من أقصى المدينة يسعى لينصر رسولين عززهما الله بثالث ، وتوعدهم القوم بالرجم والإيذاء ويبرز هذا البطل مقبلا من أقصى المدينة ، حيث يستطيع أن يكون بمفازة من الإيذاء والموقف الصعب .. جاء يسعى مسرعاً إلى مناصرة الحق بدون تباطؤ .. ويحاور القوم مؤكداً الحق الذى يحمله .. وإذا كان الله قد وقى مؤمن آل فرعون سيئات ما مكروا ، وإذا كان مؤمن سورة يس قد استشهد وأرانا الله جزاءه فى قوله تعالى:

(قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ)(١) .

فإن الحقيقة الكبيرة هى : أن البطل الذى وقاه الله السوء والبطل الذى لقى الله شهيداً كانا ينطلقان من قاعدة الإيمان ، وأن مردهما ـ طال العمر أو قصر ـ إلى رب لا تضيع عنده الودائع : (يَٰٓأَيَّتُهَا ٱلنَّفْسُ ٱلْمُطْمَئِنَّةُ . ٱرْجِعِىٓ إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَٱدْخُلِى فِى عِبَٰدِى . وَٱدْخُلِى جَنَّتِى)(٢) .

---

(١) سورة يس : ٢٦ ، ٢٧ .

(٢) سورة الفجر : ٢٧ – ٣٠ .

وثمة نماذج أخرى يمثلها أصحاب الكهف وهم فتية — أى شباب — آمنوا بربهم وزدناهم هدى . وما جاء فى سورة الكهف فى قصص العبد الصالح الذى لقى موسى ، والمثال الذى ضربه الله فى قوله تعالى : (وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلاً رَجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَابٍ وَحَفَفْنَاهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا)[1]

وما جاء فى قصة ذى القرنين .. ثم قصة امرأة فرعون بإيمانها العميق .

كل هذه النماذج ترينا أن القرآن ليس مجرد تاريخ أنبياء ورسل ، وإنما هو تاريخ الإنسانية : برجالها ونسائها ، بقادتها المعروفين وأبطالها المجهولين . بشيوخها وشبابها . بقطاعات الحياة المتعددة : اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً . وفى كل ذلك ثروة ضخمة من القيم الروحية والمبادئ الأخلاقية تقابل النفس الإنسانية فى كثير من حالاتها ومواقفها وتكون لها زاداً يعين على السير فى آفاق الحياة .

٦ — الشباب والدين :

وأول قضية تقابلنا فى هذا الموضوع هى فترة الشك التى تقابل الشباب حين يتفتحون على الحياة .. فإذا فى النفوس ذلك القلق الباحث عما حوله ، والمتطلع إلى الآفاق ليرى مكانه فى هذا الوجود .. إنها تجربة جديدة تحاولها أجنحة الفكر التى نبتت مع الشباب . وهى تجربة طبيعية يخوضها الشباب فى حواره مع نفسه . أو فى محاولته التغلب عليه

---

(١) سورة الكهف : ٣٢ .

مستعيناً بغيره ، ولقد عرضت أحاديث الرسول (ص) لذلك[١]

١ — « إن الله تجاوز عن أمتي ما وسوست به صدورها ، ما لم تعمل به أو تتكلم » . عن أبي هريرة ، متفق عليه .

٢ — « جاء ناس من أصحاب الرسول (ص) إلى النبي (ص) فسألوه : إنا نجد فى أنفسنا ما يتعاظم أحدنا أن يتكلم به . قال : أوَقد وجدتموه ؟ قالوا : نعم . قال : ذاك صريح الإيمان » . عن أبي هريرة رواه مسلم .

٣ — « لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال : هكذا خلق الله الخلق ، فمن خلق الله ؟ فمن وجد فى ذلك شيئاً ، فليقل آمنت بالله وبرسله » . عن أبي هريرة متفق عليه .

(١) وأول ما نخرج به من هذه الأحاديث أن ما جاء فى كتب الحديث تحت عنوان الوسوسة ، وما يمكن أن نطلق عليه الحوار .. داخلياً كان أو خارجياً إنما هو أمر قديم فى النفس الإنسانية . وأن تراثنا عرض له . فالظاهرة فى ذاتها طبيعية ، يمكن أن نقابلها كما نقابل أية قضية من قضايا الحياة بعامة ، والشباب بخاصة ، بالدراسة الموضوعية المستأنية .

(٢) وأن الرسول عليه الصلاة والسلام عدّ هذا الحوار النفسى صريح الإيمان ... وأنه المخاض الذى يأتى من بعده ميلاد الإيمان على أساس راسخ : أن يخوض الشباب التجربة وأن يخرج منها كما تخرج السفينة سليمة من العاصفة . وأنت لا تستطيع أن تحكم على شيء إلا بعد التجربة . بل لا تستطيع أن تعتمد على شيء بدون تجربة : الطائرة

---

(١) انظر باب الوسوسة . الفصل الأول فى مشكاة المصابيح للتبريزى ١ : ٢٦ و ٢٧ الأحاديث من ٦٣ إلى ٧٢ تحقيق محمد ناصر الدين الألبانى . المكتب الإسلامى . دمشق .

قبل طيرانها . الاختراع الجديد قبل شيوع استعماله . الجندى قبل أن يخوض المعركة . لا حرج إذن فى أن يمر الشاب فى هذه التجربة وأن يتمرس بهذا الحوار الداخلى والخارجى معاً .

(٣) ولننظر إلى القرآن الكريم فى تأكيده الإيمان ، وفى الحوار الخصب الذى يديره مع غير المؤمنين والأدلة التى يسوقها على التوحيد . بل أنت واجد فى القرآن نموذجاً للحوار الفكرى ، وهو إذا كان يسجل فيما يسجل قضايا العصر عند نزول القرآن ، فإن الاتجاه فى ذاته يعطينا الأسلوب الفكرى الذى نستطيع أن نقابل به قضايا الحياة المتطورة[١].

(٤) ولعل من الأفضل فى دراسة قضايا الشباب ألا نبدأ بتصور هذه القضايا كما نحس بها نحن . وإنما البدء الطبيعى هو الاستبانة فى هذه القضايا كافة . أن نضع أيدينا على نبض الشباب ، وأن نسأله عن احتياجاته ، وأن يأتى البرنامج بعد هذا نتيجة أمرين :

ما يقوله الشباب ، وما نود نحن أن نقوله للشباب . وقد تكون ظاهرة القلق والشك طبيعية ، ولكن مجالاتها تتباين من جيل إلى جيل مع تطور الحياة : هناك فى عالمنا المعاصر هذا الصراع بين الدول المتقدمة والدول النامية . بين الذين يعرفون والذين لا يعرفون . بين الذين يملكون والذين لا يملكون . هناك القلق على مستقبل الحياة الإنسانية من حرب شاملة . هناك توجيه ثروات العالم إلى سباق التسلح ، فى حين أن العرى والجوع لا يحظيان إلا بالقليل من العناية . هناك الإخفاق المستمر لمشروعات

---

(١) يمكن أن يرجع فى هذا الموضوع إلى المراجع الآتية :

* حسن صعب : ١ — الإسلام تجاه تحديات الحياة العصرية . ط . بيروت .
٢ — تحديث العقل العربى . ط — بيروت .

* وحيد الدين خان : الإسلام يتحدى ط — بيروت . أحمد موسى سالم — الإسلام والقضايا المعاصرة . ط . القاهرة .

عبد العزيز كامل : مواقف إسلامية — سلسلة اقرأ — دار المعارف. القاهرة.

التنمية العالمية والمشروعات الإنسانية الكبيرة ، كعقد التنمية للأمم المتحدة . هناك الصراع العنصرى والطبقى والقتل الجماعى فى فيتنام وفلسطين والأرض العربية السليبة .. وينظر الشباب بعد هذا باحثاً عن العدل ، وعن التأييد الإلهى لقوى الخير فى هذا العالم ، وعن بصيص من النور وسط هذه الغيوم المتكاثفة ..

كل هذه الجوانب تلقى ظلاً كثيفاً على قضية الإيمان، وعلى التصديق بجدوى القيم الروحية ومبادئ الأخلاق .. وقد يشتد التمزق بالشباب ، كما حدث فى كثير من أقطار العالم الغربى ، فأغرق نفر من الشباب تمزقه فى ضباب التخدير وفى غيوم الضياع ، تاركاً لشهواته العنان فى صعلكة فكرية ومادية وروحية ، كأنها الرفض أو الاحتجاج على أزمة الحياة التى يعيشها كوكبنا الحائر .

قضية الشك إذن مطروحة ولكننا فى الوقت نفسه لا نعيش فى « بيزنطة » وأمامنا فى الوقت نفسه قضايا مصيرية ، نقابلها ويقابلها شبابنا : عندنا قضية مقدساتنا السليبة وأرضنا المغتصبة . عندنا العدوان على حاضرنا وعلى تاريخنا . فالحرب بيننا وبين أعدائنا لا تمتد فقط على الجبهات المحاربة ، وإنما تمتد فى العمق الآهل بالسكان ، وعلى جبهة تاريخية طولها ثلاثون قرناً وفى أعماقها تراثنا الغالى من الإنجازات والقيم ..

ونحن نخوضها ونعلم أن أعز ما تملكه الإنسانية من قيم الخير وشريعة الإنصاف والعدل مهدد بالزوال ..

وددت بذلك أن أضع القضية فى أبعادها الحقيقية ما وسعنى ذلك ، ولكيلا أجعل من هذه القضية مسلكاً جانبياً تتسرب فيه حيوية شبابنا بعيداً عن أرض الواقع الملتهب الذى نعيشه ، والغد المأمول الذى نعمل من أجله .

ذلك لأننا — فى الوقت الذى نحتاج فيه إلى دراسة قضايا الشباب العربى — محتاجون إلى أن نضع قواه — ما وسعنا ذلك — من أجل الحفاظ على الأرض والتراث والمستقبل ، ومحتاجون إلى ما يمكن أن نسميه « اقتصاديات الجهد » ، فنوجه قوانا إلى أفضل أهدافها : فلا تأكل الأبحاث النظرية حيوية الشباب ، ولا يتجه الشباب إلى العمل بدون إطار فكرى واضح .

وهذه الاستبانات التى نقوم بها ، نحن فى حاجة إلى مراجعتها مراجعة دورية وإقليمية حتى نعرف الجوانب المشتركة والمستمرة والإقليمية فى هذه القضايا . ولكن مع هذا كله : أود أن أربط موضوعياً بين مرحلة الشك وبين نقطتين جاءتا فى دليل المناقشة وهما :

١ — النماذج البشرية من التاريخ العربى التى تعد قدوة للشباب .

٢ — تصفية الفكر الدينى والمأثورات الأخلاقية العربية من الشوائب الدخيلة .

٧ — نظرتنا إلى التاريخ وأثرها على تكوين الشباب العربى :

وكثيراً ما نلجأ فى عرض التاريخ العربى بعامة والإسلامى بخاصة إلى طريق « المناقب» وأن نركز حين نعرض هذا التاريخ على أفضل ما فيه من قمم شامخات من الأفراد والأفعال . ولا شك فى أن الأثر العميق الذى يتركه هذا العرض فى نفوس الشباب هو الإعجاب والتقدير . ويأتى بعد هذا أثر آخر :

— كيف أستطيع الصعود إلى هذا المستوى ؟

— وإذا كان الصعود ممكناً ، فهل ينجح فى هذا الصعود كثيرون ؟

وينتهى الشباب إلى إجابتين لكل منهما أثرها فى نفسه :

الأولى : أن ذلك ممكن ، ويجب عليه أن يلزم نفسه به كفرد ، وأن تتخذ الدولة — على مستوى المجتمع — جميع الوسائل التى تمكنه من الصعود إلى هذا المستوى .

الثانية : أن ذلك غير ممكن . وأن هذه حياة أنبياء ورسل ، وأنها قمم شامخات من الحواريين والصحابة الذين اتبعوهم بإحسان . فليس أمامنا إلا الإعجاب . . أما الصعود ، أو مجرد محاولة الصعود ، فهذا أمر يخرج عمليًّا عن طاقة البشر فى ظروفنا التى نعيشها .

وأنت واجد فى الحياة هذين النموذجين من الشباب . وقبل أن نتابع دراسة الاتجاهين يحسن أن نقف وقفة أطول عند مصادر العرض المثالى أو عرض المناقب فى مجتمعنا :

بين المدرسة والمسجد :

ذلك لأننا فى اختيارنا لموضوعات التربية لأبنائنا — يستوى فى هذا ما يتلقاه الطالب فى المدرسة وما يسمعه من خطيب المسجد — نعمد كثيراً إلى اختيار هذه الروائع والتركيز عليها . ولا نعطى صورة متكاملة لأحداث العصر . وإنما نلجأ إلى طريقة القصص المختار نجمعها فى « عقد فريد » أو « مستطرف » أو فى « عيون الأخبار » أو « الأمالى ».

وهذا الاختيار يتحرّى دائماً إبراز أروع ما فى الواقع الدينى . ونحن بهذا نزيد من تعميق هذين التيارين فى ذهن الشاب أو على الأصح تكوين نوعين من الشباب :

١ — النوع المثالى المؤمن بهذه الروائع وإمكانية تطبيقها وشدة نقده مجتمعه على أساسها .

٢ — النوع السلبى الذى يرى فى هذه الروائع أموراً لها — إذا أحسن الظن بها — قيمتها التاريخية بدون أن يحاول الصعود إليها .

فالمدرسة والمسجد يتعاونان بدون تخطيط سابق على تكوين قطاعات من الشباب تحس فى نفوسها : إما المتناقضات العميقة بين مصادر القيم الروحية والواقع الذى نعيش فيه ، وإما نوعاً من اللامبالاة أو السلبية : ينظر إلى الدين وإلى مصادر القيم الروحية كما يقرأ كتاب تاريخ ، ليس فيه إلا قصص الأولين .

فما موقف القرآن الكريم من هذه القضية ؟

٨ ــ خريطة اجتماعية :

لو رجعنا ــ على سبيل المثال لا الحصر ــ إلى سورة التوبة لوجدنا فيها خريطة لمجتمع المدينة فى السنة التاسعة للهجرة قبيل وفاة النبى عليه الصلاة والسلام ــ وهى بهذا حصيلة جهاد طويل استمر ثلاثة وعشرين عاماً .

هل كان تصوير القرآن الكريم لهذا المجتمع كأن كل من فيه كانوا على الإيمان والخير والإقبال على العمل الصالح ؟

هل أعطانا القرآن الكريم صورة مثالية؟ أو أعطانا صورة من صور الكفاح من أجل الخير ، صورة مجتمع تتصارع فيه القوى المؤمنة والقوى المنافقة ، وتحيط به العداوات ، ويتعاون فيه المنافقون مع الكفار فى مكة وأرض الروم ، ويدبرون المؤامرة بعد المؤامرة ؟

هل استطاع هذا المجتمع أن يقضى على المتناقضات كلها فيه ؟

وهل من طبيعة أى مجتمع أن يستطيع القضاء على كل ما فيه من متناقضات ؟

لقد صور لنا ربنا تبارك وتعالى فى هذه السورة النفس الإنسانية فى إقبالها على الله ، وفى اضطرابها بين نوازع القوة والضعف ، فى إيثارها الجهاد تارة ، وفى إيثارها الدعة تارة أخرى . صوّرها وهى مؤمنة مقبلة على الله ، وصوّرها وهى مدبرة متآمرة على الإسلام . وكل هذا فى إطار

مكانى هو المدينة المنورة ، وفى مدى زمنى هو حياة الرسول الأعظم ، وفى ذروة بلغتها قوة الإسلام فى غزوة تبوك عندما كان جيش المسلمين ثلاثين ألفاً ، والفرسان منهم عشرة آلاف ؟

وما موقف الرسول من هذا كله ؟ وما موقف الصحابة ؟

إننى أعتقد أن الدراسة العميقة لسورة التوبة — على سبيل المثال — ترينا أن الحياة تقوم أساساً على التدافع المستمر بين قوى الخير والبناء ، وقوى الشر والهدم .

وأن صورة المجتمع الإنسانى الذى خلا من كل العيوب ، وفرغ من كل التناقضات ، وتطهرت نفوس أفراده من كل الأدران، صورة لا نستطيع أن نجد لها أساساً فى كتاب الله .

ترى : هل نحن الذين نضع صورة وردية لمجتمعات فاضلة نجعل أبناءنا يؤمنون بها وهى غير واقعية ولا ممكنة التحقيق ، ثم نوقعهم فى حرج حين يجدون الفارق الكبير بين الصورة والواقع ؟

ترى : هل نحن الذين نحتاج إلى مراجعة أنفسنا فى عرض المجتمعات الإنسانية عرضاً موضوعياً قرآنياً ؟ (١) .

إن هذا العرض هو الذى يدعو الشباب إلى التمسك بالحق وإلى الكفاح ويزيده استمساكاً بالقيم الروحية والأخلاق الفاضلة ، على أساس الواقع ، مؤمناً أن عليه أن يسجل الخطوة بعد الخطوة ويحقق الأمل بعد الأمل ، وهو إن تعثر فى الطريق يعلم أن يد الله تأخذ بيده ونور الحق يضىء له الطريق .

إننى أحس أننا أحياناً — أو كثيراً — ما نعطى شبابنا صوراً غير متوازنة وغير موضوعية عن المجتمعات الإنسانية ، فإذا ما تمزقت نفوسهم

---

(١) انظر للكاتب على سبيل المثال دراسة منهجية وتطبيقية لهذا الموضوع فى كتاب دروس من غزوة أحد . ط . دار المعارف ، القاهرة — وكانت كتابته بعد النكسة يونيو (حزيران) ١٩٦٧ .

بين الصورة والحقيقة ، وفقدوا الاتزان الذى يعينهم على السير ، ويحول بينهم وبين الانحراف أو الاندفاع ، عدنا إليهم نحاسبهم ، ونحن المسئولون أولا عن منهج التوجيه . هذا الانحراف قد يكون تعجلا لمراحل التطبيق وقد يزداد التعجل فيصبح انعزالا عن المجتمع أو ضيقاً به أو سلبية فيه ..

من أجل ذلك أود أن نعرض النماذج الإنسانية والاجتماعية للشباب عرضاً موضوعياً إنسانياً ما وسعنا ذلك .

ولا نستطيع أن نتصور صبر الرسل إلا بمكايد المنافقين والكافرين . ولا يضير المسيح عليه السلام أن خانه يهوذا وهو الذى عاش معه . ولا يضير موسى أن لقى هذا العنت من بنى إسرائيل ، ولا يضير رسولنا عليه الصلاة والسلام أن لقى من صنوف الإيذاء من المشركين والمنافقين ما سجله القرآن الكريم وكتب الأحاديث والتاريخ حتى زادت أساليب إيذائهم على الثلاثين .

بل إن إيمان المؤمنين ليتجلى إذا ما احتك بهذا الكفر والنفاق والشرك والانحراف ... وهذه القوى كلها كانت تعمل متفاعلة فى مجتمعات الأنبياء . فكيف بمن جاءوا بعدهم أو بينهم ؟

يقودنا هذا إلى منهجنا فى عرض النماذج البشرية التى تمثلت فيها القيم الروحية ومبادئ الأخلاق .

وقد لا يتسع مجال القول فى هذا البحث لتفصيل ذلك ، ولكننى أود أن أركز على نقطة رئيسية هى عرض النماذج فى إطارها الاجتماعى وفى بيئتها الحضارية ومصادر تكوينها ، ونموها وتفاعلها مع الظروف الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والإضافات التى استطاعت القيام بها والكفاح النفسى والاجتماعى الذى قامت به حتى استطاعت أن تحقق هذه الإضافات .

هذا العرض المتكامل سيقودنا إلى تكوين نظرية متوازنة عند الشباب

بين الفرد والجماعة . بين جوانب الحياة الفكرية والتطبيقية . بين الدين والحياة . وسيشعر الشاب العربى حينئذ بهذه القيم صديقاً يسكن إليه ، ونوراً يهديه فى طريق الحياة ، وزيتاً يوقد منه مصباحه ، ومثابة يعود إليها إذا ما تجاذبته تيارات الحياة . ويستطيع أن يحس ويعلم صدق مدى ما تستطيع حضارته أن تساهم به فى الحاضر بعد أن ساهمت فى الماضى فى التراث العالمى ، ودورها فى حل قضاياه الكبرى (١).

٩ ــ خاتمة :

وأرجو أن نتعاون معاً على أن تكون هذه البحوث أساساً لمادة فكرية تقدم إلى الشباب العربى فى مرحلته المصيرية التى يمر بها تعين على تناول قضاياه جميعاً ، فى عرض مبسط سهل التناول والتداول بحيث تتكون عندنا « مكتبة الشباب العربى » تربط الشباب بماضيه ، وتزيده قدرة على التفاعل مع حاضره والعالم من حوله ، من أجل مستقبل أفضل لوطنه وللإنسانية .

---

(١) على سبيل المثال للمؤلف : الإسلام والتفرقة العنصرية . ط ــ اليونسكو (١٩٧٠) باللغات العربية والإنجليزية والفرنسية . وأعمال مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الشريف ، الدورة الخامسة (ذو الحجة ١٣٨٩ هـ ــ فبراير ١٩٧٠) وعنايتها بقضايا الشباب : ١٩٧٠

الفصل السادس

الإسلام والتّطور

منهج البحث :

١ ـ يمكن ابتداء أن نطرح سؤالين :

(ا) إذا كان كل شيء فى المجتمع ثابتاً ، فكيف يستطيع أن يقابل الظروف المتغيرة التى يفرضها تطور الحياة ؟

(ب) وإذا كان كل شيء فى المجتمع متغيراً ، فكيف يستطيع المحافظة على شخصيته وملامحه الرئيسية ؟

إن المجتمع إذا تيبس على أوضاع يعيش فيها ، ورفض باسم المحافظة أن يتقبل كل جديد ، حكم على نفسه بالانزواء ثم الفناء . لا يختلف فى هذا عن كائنات عاشت فى عصور جيولوجية ـ كالزواحف العظيمة ـ ولم تستطع أن تتأقلم مع الظروف المتطورة فبادت ولم يبق منها إلا آثارها بين طبقات الجليد ، أو هياكلها فى الكهوف وبين الصخور . .

ومن ناحية أخرى : إذا كان كل شيء فى المجتمع عرضة للتغير . . العقائد، القيم ، الأخلاق ، الأوضاع الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ـ إذا كان كل شيء متغيراً ، ما استطاع مجتمع أن يحافظ على ذاتيته وكيانه . .

والنتيجة المنطقية التى نستطيع أن نخرج بها من هذا : أن المجتمع ينبغى أن يجمع بين المحافظة على مقوماته والاستجابة لحاجات الحياة المتطورة . . وبعبارة أخرى هناك نواح ينبغى أن يحافظ عليها المجتمع ، ونواح أخرى ينبغى أن يطورها المجتمع ، بحيث يستطيع أن يحافظ على شخصيته ويتطور فى الوقت نفسه .

وعلى هذا نستطيع أن نخرج من السؤالين اللذين طرحناهما فى صدر هذه الفقرة بسؤال جديد :

– ماهى نواحى الثبات ونواحى التطور فى المجتمع من وجهة النظر الإسلامية ؟

فالبحث إذن سيقسم إلى قسمين : يعرض أولهما للجوانب التى يؤكدها الإسلام كخطوط مستمرة فى المجتمع ، ويعرض القسم الثانى للجوانب التى يفرض الإسلام على المجتمع تطويرها حتى يستطيع أن يستجيب لحاجات الحياة ويرتقى بها دائماً . .

والانحراف هنا يكون بأحد طريقين :

الأول : تغيير الجوانب الأصيلة .

الثانى : تجميد الجوانب المتطورة .

وفى كل من هذين القسمين سندرس المجتمع الإسلامى الأول ثم نقارن ذلك بتجربتنا الاشتراكية بحيث تبدو جوانب التأصيل والتطوير فى كل منهما . وفى المجتمع الإسلامى الأول سنستند إلى نصوص القرآن والسنة ومراجع فى التاريخ الإسلامى وفى تجربتنا الاشتراكية .

القسم الأول – جوانب الثبات فى الإسلام

الإيمان :

٢ – هناك أولا الإيمان بالله وإسلام النفس إليه . والله تعالى يبين أن هذا هو المحور الرئيسى الذى تدور حوله الحياة والذى أمر الله به رسله والناس جميعاً . وفى أوائل سورة البقرة تطالعنا الآية الكريمة :

(يَأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ

قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(١). وبين أن هذا الإيمان كان دعوة الأنبياء ووصيتهم إلى أبنائهم قولهم وهم يودعون الحياة ، والعقيدة التى يتوارثونها . وفى هذا يقول الله تعالى عن آل إبراهيم : (وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ: رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ . رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ . وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ ؟ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِى الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِى الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ . إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ : أَسْلِمْ قَالَ : أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ. وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِىَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ . أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ

(١) سورة البقرة: ٢١ .

قَالَ لِبَنِيهِ : مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي ؟ قَالُوا : نَعْبُدُ إِلٰهَكَ وَإِلٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحٰقَ إِلٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ)(١).

وبين الله تعالى أن الإيمان هو « مدار » النفس الانسانية ، بحيث يضطرب سير الفرد والمجتمع إذا خرج عن هذا المدار . نجد صورة لهذا فى قوله تعالى : (وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ)(٢).

وأجمع آيات الوصايا فى القرآن قول الله تعالى : (وَلَقَدْ وَصَّيْنَا الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ اتَّقُوا اللهَ)(٣).

وهذا الإيمان يشمل النبوات جميعاً ، ويبين هذا قوله تعالى : (آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ ، لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ)(٤) .

---

(١) سورة البقرة : ١٢٧ — ١٣٢ .

(٢) سورة الحج : ٣١ .

(٣) سورة النساء : ١٣١ .

(٤) سورة البقرة : ٢٨٥ .

لعبادات :

٣ ـ الجانب الثانى الذى يثبته الإسلام هو العبادات . فهى محددة لا يملك أحد تغييراً لها ولا تبديلا .

(١) فإقامة الصلوات الخمس فى أوقاتها ، وتحديد هذه الأوقات وكيفية أدائها محددة . وحديث الرسول صلى الله عليه وسلم واضح : « صلوا كما رأيتمونى أصلى » . وإذا كانت صلاة المقيم الصحيح الجسم تسير على نظامها المعتاد ، فإن الله خفف عن المسافر وعن المحارب ، ويسّر لهم فى عدد الركعات وفى جمع الصلوات المشتركة الوقت حتى إن المريض ليستطيع الصلاة بالإيماء وحركة الجفن . . كل هذه الجوانب جاءت بتفصيل دقيق لا يدع إلا مجالا محدوداً جداً للرأى فى بعض التفاصيل .

(ب) مثل هذا يقال عن الصوم . فهو محدد بشهر رمضان : (شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى وَالْفُرْقَانِ ، فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ ، يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ)(١) .

(حـ) تأتى بعد هذا الزكاة ، ولها نصاب شرعى . وجانب من أمر المال حدده القرآن ، وجانب بينته السنة المطهرة ، وجانب ثالث ترك

---

(١) سورة البقرة : ١٨٥

لاجتهاد المسلمين ، وهذا الجانب سنعرض له فى القسم الثانى من هذا البحث .

والقرآن الكريم لم يفرق بين الصلاة والزكاة : (قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنِ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ)(١) .

والله أمر نبيه بأخذ الزكاة ممن تستحق عليهم وصرفها فى مصارفها فقال : (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً [وهى هنا الزكاة] تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ)(٢) .

وبين مصارفها فى قوله : (إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ ، وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ)(٣) .

وكانت أول حرب فى الإسلام بين المسلمين والمرتدين على الزكاة ووجوب أدائها لبيت المال ليتولى إنفاقها فى أبوابها . وواضح من الآية

---

(١) سورة المؤمنون : ١ — ٤ .
(٢) سورة التوبة : ١٠٣ .
(٣) سورة التوبة : ٦٠

الكريمة حق الفقير والمسكين والغارم (المدين) وابن السبيل (المنقطع عن أهله) فى هذا المال فضلا عن المصارف الأخرى كالدفاع عن الوطن . وقد تكلم الصحابة مع أبى بكر فى أن يترك قتال مانعى الزكاة ويتألفهم حتى يتمكن الإيمان من قلوبهم ، ثم هم بعد ذلك يزكون ؟ فامتنع أبو بكر عن ذلك وأباه . وخاطبه عمر بن الخطاب قائلا : علامَ تقاتل الناس ؟ وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها ؟ فقال أبو بكر : والله لو منعونى عناقاً (وفى رواية عقالا) كانوا يؤدونه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها . إن الزكاة حق المال ، والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة . قال عمر : فما هو إلا أن رأيت أن الله قد شرح صدر أبى بكر للقتال فعرفت أنه الحق [١] فكانت أول حرب فى الإسلام دفاعاً عن حق الفقير .

(د) فإذا جئنا إلى الحج بعد هذا وجدناه محدد الموسم والمناسك أيضاً . والنبى يعلمنا فيقول : « خذوا عنى مناسككم » ، ونحن لا نستطيع أن نغير من نظام الطواف أو السعى أو الدفع إلى عرفات والإفاضة منها إلى المشعر الحرام وذكر الله فى أيام معدودات فى منى ثم العودة إلى مكة . . هذا مع تيسير وتخفيف عن المريض والضعيف . والمفروض أولا فى الحج القدرة وهى الزاد والراحلة . أى توافر المال

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ٦ : ٣١١ إلى ص ٣٣٢ فى بقية حروب الردة . ومعنى عناق : الأنثى من ولد الماعز والغنم من حين الولادة إلى تمام الحول . ومعنى عقال : حبل يربط به البعير ليبقى باركا . . والمقصود من قول أبى بكر لو منعونى حتى أقل الأشياء قيمة لقاتلتهم عليه .

ووسيلة المواصلات . وهذا ــ بداهة ــ بعد توافر القدرة البدنية التى تعينه على أداء الفريضة . والله يقول : (الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ)(١) .

وفى دراسة العبادات جانبان ، أولهما : الاتباع . فليس كل شىء فى العبادة يمكن أن يفسر على أساس عقلى بحث تبدو به كل نواحى الحكمة فيه : لماذا فى الصلاة ركعة وسجدتان ؟ ما الحكمة فى التيمم وهو يحل محل الوضوء إذا تعذر الماء أو احتاج إليه الفرد فى أمر حيوى ؟ لماذا الطواف والسعى سبعة أشواط ؟ لماذا الصوم فى رمضان بالذات ؟ هذا الجانب التعبدى فى الإسلام . وموقف المسلم فيه هو الاتباع تصديقاً بأن هذا ما جاء به الدين .

وهناك جانب ثان تبدو به الحكم فى هذه العبادات . وبعضها جاء فى القرآن والأحاديث والبعض من جهود العلماء . ومن نماذج ما جاء فى القرآن الكريم :

- (إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ)(٢) .
- (خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا)(٣) .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٧ .
(٢) سورة العنكبوت : ٤٥ .
(٣) سورة التوبة : ١٠٣ .

• (كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ)(١) .

• (وأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ . لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ)(٢) .

فهنا نجد الآيات الكريمة تربط بين العبادة ونتائجها فى الفرد والمجتمع ، بدون الاكتفاء بالأصل التعبدى وحده .

الأخلاق :

٤ — والرسول صلى الله عليه وسلم يبين لنا هدفاً رئيسيًّا من أهداف الدعوة الإسلامية فى قوله : « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق » ، ويصفه ربه فيقول : (وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ)(٣) ، ويؤكد الإسلام وجوب تمسك الفرد والجماعة بالخلق الكريم فى مجالات الحياة على تنوعها ، ولنذكر نماذج من ذلك :

(ا) هناك أولا معاملة الفرد لنفسه . . فما عنده من قوى ومواهب

---

(١) سورة البقرة : ١٨٣ .
(٢) سورة الحج : ٢٦ — ٢٨ .
(٣) سورة ن : ٤

وحواس هي في أساسها ملك لله تعالى . والله سائله عما فعل بها . ويمدح الرسول هذا الخلق في قوله: « طوبى لمن زكت وحسنت خليقته وطابت سريرته وعزل عن الناس شره ، طوبى لمن أنفق الفضل من ماله وأمسك الفضل من قوله »[١] .

(ب) فهذا الخلق الفاضل ليس أمراً انطوائياً في حياة الفرد ، وإنما يمتد ليشمل دوائر متتابعة الاتساع في حياته ، وأقربها إليه دائرة الأسرة بادئة بالأم فالأب والإخوة . وسئل الرسول في هذا فقال : « أمك وأباك وأختك وأخاك ومولاك الذي يلي ذلك حقاً واجباً ورحماً موصولة » أخرجه أبو داود . وفي حديث عائشة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم: « خيركم خيركم لأهله ، وأنا خيركم لأهلي »[٢] ، أخرجه الترمذي .

(حـ) وتتسع الدائرة لتشمل اليتيم . وأخرج البخاري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : « أنا وكافل اليتيم في الجنة هكذا ، وأشار بالسبابة والوسطى ، وفرج بينهما »[٣] .

(د) وتتسع الدائرة بعد هذا لتشمل أية خدمة عامة أو خاصة ، وفي هذا يقول الرسول ناصحاً بعض الصحابة عندما سأله عن شيء ينفعه : « اعزل الأذى عن طريق المسلمين »[٤] وقوله : « الساعي على الأرملة والمسكين كالمجاهد في سبيل الله ، أو كالذي يصوم النهار ويقوم الليل »[٥] .

(هـ) ولا يقتصر البر على الإنفاق المالي فقط ، وإنما يشمل الكلمة

---

(١) أحمد زكي صفوت : جمهرة خطب العرب ١ : ٥٢ — ٥٣ .

(٢) ابن الديبع الشيباني : تيسير الوصول ١ : ٤٩ — ٥٠ — ويجمع هذا المرجع الأحاديث على أساس موضوعي ، والموضوعات مرتبة على حروف المعجم . ويجمع أحاديث الأصول الستة المشهورة (صحيحي البخاري ومسلم وموطأ الإمام مالك ومسند أبي داود وجامع الترمذي ومسند النسائي) رحمهم الله .

(٣) إلى (٥) المرجع السابق .

الطيبة والبسمة والمجاملة ، ويجمع هذا قول الرسول صلى الله عليه وسلم : « لا تحقرن من المعروف شيئاً ، ولو أن تلقى أخاك بوجه طلق »[١].

(و) بل إن هذا البر ليمتد للحيوان الأعجم ، وفى هذا يقول الرسول (صلى الله عليه وسلم) : « إن لكم فى كل ذات كبد رطبة أجراً » .

(ز) وهذا الخلق غير مقيد بأرض الإسلام ، ولكننا نراه حتى فى الحرب ولقاء العدو . ويروى أبو داود عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « انطلقوا باسم الله وبالله وعلى ملة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، لا تقتلوا شيخاً فانياً ، ولا طفلا صغيراً ، ولا امرأة ولا تغلوا (الغلول حجز جزء من الغنيمة) وضموا غنائمكم (أى اجمعوها) وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين » ، وفى حديث آخر : « لا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا الولدان ولا أصحاب الصوامع »[٢].

والمطلوب فى المجتمع الإسلامى التمسك بكل من القانونين الأخلاقى والعلمى ، والمقصود بالقانون العلمى هنا اتخاذ الوسائل الموضوعية السليمة المؤدية إلى رقى المجتمع فى مجالات السياسة والاقتصاد والعلم جميعاً . . وبالقانون الأخلاقى أن يكون التعامل فى المجتمع على أساس من الأخلاق التى حدد الإسلام معالمها الرئيسية وأتم بها مكارم الأخلاق التى جاءت فى الأديان السابقة وأعطانا نماذج من تطبيقاتها العملية . وأى قانون وحده منهما لا يكفى . .

لا يكفى أن يتوافر فى الأفراد والمجتمع حسن الأخلاق ، مع مستوى علمى منخفض أو فى قاعدة اقتصادية هزيلة ، أو استعمار . . ولا يكفى من ناحية أخرى أن يأخذ المجتمع بأسباب التقدم العلمى والاقتصادى والسياسى ولا يبالى بعد هذا بمستواه الأخلاقى . ولا شك

---

(١) المرجع السابق .
(٢) الشوكانى : نيل الأوطار ٧ : ٢٤٦ — ٢٤٨ .

فى أن هناك تفاعلا بين الجانبين ، ولكن الأساس فى الإسلام أن يكون القانونان : العلمى والأخلاقى الجناحين اللذين يحلق بهما المجتمع فى آفاق التقدم .

الأحكام :

٥ – يحتوى القرآن من آيات الأحكام على خمسمائة أو تزيد قليلا ، على حسب الاختلاف عند من يجعل بعض آياته آيتين ، بدون خلاف فى الآية نفسها ، بعضها يتعلق بالعبادة ، وأكثرها يتعلق بالمعاملات المالية وسواها من قضاء وسياسة ونظام للحياة المدنية ، وفيها من الاختصار البلاغى ومن الشمول نعمتان من نعم الله .. فبهما اتسعت آيات التشريع لكل زمان ومكان تعيشه الإنسانية [١] ، وسنعود إلى هذا بشىء من التفصيل فى الجزء المتطور . وإنما الذى نؤكده هنا أن آيات الحدود والمواريث ، والمبادئ العامة فى الحكم والاقتصاد والسياسة الدولية والحرب هى من الآيات الموضحة للجوانب الثابتة فى المجتمع الإسلامى . ولا يملك مسلم رفض نص صريح فيها . وقول الله واضح فى هذا :

(فَلِذَٰلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ . وَقُلْ آمَنْتُ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمْ اللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ اللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ)[٢] .

---

(١) عبد الحليم الجندى : توحيد الأمة العربية ص ٤٣ .
(٢) سورة الشورى : ١٥

وقوله تعالى : ﴿ وَأَنِ احْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَاحْذَرْهُمْ أَنْ يَفْتِنُوكَ عَنْ بَعْضِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكَ ﴾[1].

ثانياً — جوانب التطور فى الإسلام

كلمة عن مصادر التشريع :

٦ — وقبل أن نبدأ فى دراسة التطور يحسن أن نذكر كلمة موجزة عن مصادر التشريع الإسلامى وعلاقة المسلمين بها فى واقعهم التاريخى[2] :

فلقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم فى حياته مرجع المسلمين فى تدبير شئونهم العامة : من تشريع وقضاء وتنفيذ . وكان قانونه فى هذا التدبير ما ينزل عليه من ربه ، وما يهديه إليه اجتهاده ونظره فى المصالح ، وما يشير به أولو الرأى من صحابته فيما ليس فيه تنزيل . وكان التدبير بهذه المصادر يتسع لحاجات الأمة ويكفل تحقيق مصالحها .

وقد ترك الرسول صلى الله عليه وسلم فى أمته هاديين لا يضل من اهتدى بهما فى تدبير شئونها وهما : كتاب الله وسنة رسوله . وأقام مناراً ثالثاً يستضاء به — فيما ليس فيه نص من كتاب أو سنة — وهو الاجتهاد الذى مهد طريقه ، ودعا إليه بقوله وعمله وإقراره . ذلك لأنه

---

(١) سورة المائدة : ٤٩ .

(٢) الفقرات من ٦ إلى ٩ تعتمد اعتماداً رئيسياً على الفصل التمهيدى الذى كتبه المرحوم الأستاذ عبد الوهاب خلاف فى كتابه « السياسة الشرعية أو نظام الدولة الإسلامية فى الشئون الدستورية والخارجية والمالية » ص ٦ — ١٣ .

صلى الله عليه وسلم كثيراً ما كان يبلغ الأحكام مقرونة بعللها والمصالح التى تقتضيها ، وفى هذا إيذان بارتباط الأحكام بالمصالح ، ولفت إلى أن الغاية إنما هى : جلب المنافع ودرء المفاسد . وقد أقر الرسول صلى الله عليه وسلم اجتهاد من اجتهد فى حضرته من صحابته وقال للمجتهد : إن أصبت فلك أجران وإن أخطأت فلك أجر . وكان ينهى عن الشىء لمصلحة تقضى بتحريمه ثم يبيحه إذا تبدلت الحال وصارت المصلحة فى إباحته . ولما خرج صحابيان فى سفر وحضرتهما الصلاة وليس معهما ماء وصليا ، ثم وجدا الماء فى الوقت ، وأعاد أحدهما ولم يعد الآخر صوبهما النبى صلى الله عليه وسلم وقال للذى لم يعد : « أصبت السنة وأجزأتك صلاتك » وقال للآخر : « لك الأجر مرتين » . هذا كله وكثير مثله بث فى نفوس المسلمين أن غاية الشرع إنما هى المصلحة ، وحيثما وجدت المصلحة فثم شرع الله . وأنار لهم أن السبيل إلى تحقيق المصالح حيث لا نص إنما هو اجتهاد الرأى .

فى عهد الخلفاء الراشدين :

٧ — وظهرت هذه الروح فيما سلكه الخلفاء الراشدون بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم فى تدبير الشئون العامة للدولة ، فكانوا يهتدون فى نظمهم وسائر تصرفاتهم بما شرع الله فى كتابه ، وعلى لسان رسوله . وإن حدث لهم ما ليس له حكم فى كتاب ولا سنة اجتهدوا رأيهم ، واتبعوا ما أدى إليه اجتهادهم مما رأوا فيه مصلحة الأمة ولا يخالف روح الدين . وكثيراً ما كان اجتهاد أحدهم يخالف اجتهاد صاحبه ، بل قد يخالف ما يفهم من ظاهر النص . وما اتهم مجتهد منهم أنه على غير الحق ، مادامت الغاية : المصلحة وعدل الله ، والوسيلة : اجتهاد الرأى وإنعام النظر .

وقد اجتهد أبو بكر فاستخلف على المسلمين عمر ، واجتهد عمر فلم يستخلف واحداً ، وترك الأمر شورى بين ستة . فاجتهاد أحدهما غير

اجتهاد صاحبه . واجتهادهما معاً غير ما فعل الرسول لأنه لم يستخلف واحداً كما فعل أبو بكر ، ولم يترك الأمر شورى لستة كما فعل عمر . وما رمى واحد منهما بأنه خالف شرع الله لأنه توخى المصلحة واجتهد ما استطاع .

واجتهد عثمان وجمع الناس على قراءة القرآن بحرف واحد هو ما دوّن فى المصحف الإمام ، ولم يكن ليخفى أن القرآن أنزل على سبعة أحرف . ولكنه خشى فتنة الخلف بعد اتساع أرض الإسلام وتفرق الحفاظ فى الأمصار واستشهادهم فى الجهاد فمنع ما كان مباحاً .

واجتهد علىّ فعاقب الرافضة بالتحريق عندما رأى المصلحة فى الزجر عن الجرم الشنيع بالعقاب الشنيع .

وكذلك كان الشأن فى القضاء وطرق الحكم . . وكانوا ينظرون فى التنفيذ إلى ما تقضى به المصلحة وحال الناس . فقد عطل عمر تنفيذ حد السارق فى عام المجاعة ، وأسقط سهم المؤلفة قلوبهم لما أعز الله الإسلام . وهذه السبيل التى سلكها المسلمون أول أمرهم فى التشريع والقضاء والتنفيذ ، كانت السبيل القويمة فى تدبير شئون المجتمع ، وكانت لا تضيق بحادثة أو حاجة ، ولا تقصر عن تحقيق أية مصلحة ، ولا عن مسايرة الزمن فى تطوره ، وبسلوكها ما شعر واحد بقصور الإسلام عن مصالح الناس ، وكانت الأحكام جميعاً مصدرها القرآن والسنة وما اهتدى إليه أولو الرأى متحرين المصلحة ، والله ما شرع الشرائع إلا لمصلحة عباده .

وضع قواعد الاجتهاد :

٨ — وجاء بعد هذا عصر التزم فيه مجتهدو الفقهاء طرقاً خاصة فى الاجتهاد . وسواء أكان الباعث لهم على هذا زيادة حرصهم على ألا

يتعدوا شرع الله أم اتّهامهم عقولهم بالقصور عن السابقين أم غير ذلك ، فإن هذا الالتزام قيد من حرية المجتهد وضيق دائرة الاجتّهاد وقضى بإغفال كثير من المصالح المرسلة : وهي التي لم يرد في الشرع دليل بشأنها ، ولم يشهد الشارع باعتبارها ولا بإلغائها . وبعد أن كان مجتهدو الصحابة يعملون لمطلق المصلحة لا لقيام شاهد بالاعتبار ، وهاديهم في هذا فطرة سليمة ونظر صحيح ، صار الاعتبار لمصالح خاصة والمرجع إلى قواعد موضوعة . وبهذا بدأت تضيق دائرة التشريع وتلتزم طرقاً خاصة للوصول إلى الحق ، وتغل اليد عن تنفيذ ما قد يكون فيه بعض الإصلاح .

٩ — وكان هؤلاء المجتهدون يشعرون في بعض الأحوال بحرج هذه القيود ، فكانوا يخرجون من هذا الضيق بما يدعونه الاستحسان ، وهو بقية من روح الاجتّهاد الفطري الذي كان سبيل السلف الأول .

تخلف التشريع :

١٠ — وبإغفال المصالح المرسلة في التشريع وإلغاء اعتبار القرائن والأمارات في القضاء ، والتزام طرائق خاصة للوصول إلى الحق وتنفيذه ، ظهر الفقه الإسلامي بمظهر القاصر عن التشريع ، الذي لا يتسع لمصالح الناس ، ولا يساير الزمن وتطوراته ، وأخذ الولاة ينظرون إلى مصالح الناس المطلقة ويدبرونها غير ملتزمين بما التزمه هؤلاء المجتهدون . وبدأت المجتمعات الإسلامية ترى نوعين من النظم والأحكام : أحدهما ما استنبطه الفقهاء المجتهدون على وفق أصولهم وقيودهم ، وثانيهما ما لجأ إليه الساسة الولاة لتحقيق المصالح المطلقة . وكان هذا النوع الثاني يتبع حال واضعيه : فتارة يكون معتدلا غير متجاوز حدود الدين وأصوله العامة ، وتارة يكون مراعى فيه الأغراض والمصالح الجزئية . .

ثم زاد قصور الفقه الإسلامي عن مصالح الناس بإغلاق باب

الاجتهاد واقتصار الفقهاء على حمل الناس أن يتبعوا ما استنبطه أئمتهم فى عصورهم السالفة بدون نظر إلى ما بين الأزمان والأحوال من تفاوت . فاتسعت دائرة الخلف بين الفقه ومصالح الناس فى كثير من الشئون . واتجه ولاة الأمر فى المجتمعات الإسلامية إلى مراعاة المصالح أو البعد عنها وفق ما تمليه عليهم مواقفهم من عدل أو جور . . بدون تقيد بأقوال الفقهاء المتبوعين . .

بين الاجتهاد والسياسة :

١١ — اعتمدنا فى الفقرات (من٦ إلى ٩) اعتماداً رئيسيًّا على التمهيد الذى قدم به المرحوم الأستاذ عبد الوهاب خلاف كتابه (السياسة الشرعية) . وهناك نقطة لها خطورتها أشار إليها المرحوم السيد محمد رشيد رضا فى كتابه « يسر الإسلام » عند دراسته قاعدة « دفع المفاسد وحفظ المصالح » وكيف أن جماعة الفقهاء يصرحون دائماً بإرجاع جميع الأحكام إليها . .

يقول السيد رشيد رضا : « إنما فر أكثر علماء الأمة من تقرير هذا الأصل تقريراً صريحاً مع اعتبارهم كلهم له — كما قال الإمام القرافى — خوفاً من اتخاذ أئمة الجور إياه حجة لاتباع أهوائهم وإرضاء استبدادهم فى أموال الناس ودمائهم ؛ فرأوا أن يتقوا ذلك بإرجاع جميع الأحكام إلى النصوص ولو بضرب من الأقيسية الخفية . فجعلوا مسألة المصالح المرسلة من أدق مسالك العلة فى القياس ولم ينوطوها باجتهاد الأمراء والحكام، وهذا الخوف فى محله ، ولكن لم يق الأمة من أهواء الحكام كما ينبغى، إذ كان يوجد فى عهد كل ظالم من علماء السوء من يمهد له الطريق ولو لبعض ما يريد من اتباع الهوى » (١)

---

(١) السيد محمد رشيد رضا : يسر الإسلام وأصول التشريع العام ص ٧٤ — ٧٥ .

وواضح من كلام السيد رشيد رضا أن شدة تمسك كثير من الفقهاء فى عهود الظلم بالنصوص وتضييق المجال أمام الاجتهاد — لم يكن مرجعه ضعفاً فقهياً فيهم ، ولا عجزاً عن الاجتهاد ، ولكن وجودهم فى ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية يسيطر فيها حكام ظالمون . . فلو فتح الفقهاء باب الاجتهاد والتوسع فى قاعدة « دفع المفاسد وحفظ المصالح » لاتخذها الظالمون طريقاً إلى إلباس مظالمهم لباساً شرعياً . .

١٢ — ويعقب السيد رشيد على دراسته لأصل « دفع المفاسد وحفظ المصالح » بعرض ما يراه الطريقة المثلى للتعاون بين الحكم والدين فيقول: « والطريقة المثلى لحفظ الحق وإقامة ميزان العدل ، هى رفع قواعد الحكم على الأساس الذى شرعه الله تعالى للمسلمين بقوله : (وأمرهم شورى بينهم). وقوله : (وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، ذلك خير وأحسن تأويلا) . لا بإنكار أصل المصالح ولا بالتضييق فى تفريع الأحكام عليها . فإن نيط ذلك بأولى الأمر (أى أهل الحل والعقد) الذين ينصبون الإمام (الخليفة) ويكونون أهل الشورى له ، ويكون هو مقيداً بما يقرونه — فحينئذ لا يخشى من جعل مراعاة المصالح ذريعة للمفاسد، ما يخشى منه فى حال إقرار كل متغلب على الحكم ، مع التضييق فى مسالك استنباط الأحكام الذى جرى عليه جماهير الفقهاء . وإنما مثار المفاسد كلها أن يوسد الأمر إلى غير أهله ، وأن يقر على الملك كل متغلب ، ويرضى بتقليده كل جائر جاهل ، فهذا هو الذى أضاع على المسلمين دينهم ودنياهم »[١]

(١) المرجع السابق نفسه : ص ٧٥ .

الإجماع ونسخه بإجماع ثان :

١٣ – وقد درس المرحوم الإمام الأكبر الشيخ محمود شلتوت[١] جوانب الإجماع ، وبين أنه من المتعذر عملياً اتفاق جميع مجتهدى الأمة فى عصر على رأى واحد « نظراً لأن المسألة أو المسائل التى تعرض عليهم هى من ذات البحث والنظر ، والسنة البشرية تقضى فى مثلها باختلاف الرأى ، لمكانة التفاوت بين الناظرين فى قوى الإدراك ووسائل البحث التى منها اختلاف ظروف الأقاليم التى تحيط بكل باحث . ويمكن حينئذ قبول الإجماع على أنه « عدم العلم بالمخالف » أو « اتفاق الكثرة » وكلاهما يصلح أن يكون أساساً للتشريع العام الملزم فى المسائل ذات النظر والبحث ، إذ هو غاية ما فى الوسع ، ولا يكلف الله نفساً إلا وسعها . ولكن يشترط فى اعتباره على وجه عام : أن تكون حرية رأى الباحثين مكفولة وألا يتصل بها مظهر من مظاهر الضغط التى قد يكبل به السلطان حرية الرأى » .

ويعقب على هذا بقوله : « وإذا كان من أسس الإجماع اتفاق النظر فى تقدير المصلحة – وهى مما يختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة والأحوال – فإنه يجوز للمجتهدين أنفسهم أو لمن يأتى بعدهم إذا تلك تغيرت ظروف الإجماع الأول ، أن يعيدوا النظر فى المسألة على ضوء الظروف الجديدة ، وأن يقرروا ما يحقق المصلحة التى تقتضيها الظروف ، ويكون الاتفاق الثانى إجماعاً منهياً لأثر الإجماع الأول ، ويصير هو الحجة التى يجب اتباعها ، وإذا وجدت المصلحة فثم شرع الله » .

« هذا هو الاجتهاد الجماعى ، أما الاجتهاد الفردى فإنه لا يكون حجة ملزمة إلا لصاحبه » .

---

(١) محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة ص ٥٦٦ – ٥٦٧ .

اتجاهات جديدة لأوضاع جديدة :

١٤ ـ وإذا ما انتقلنا من النظرية إلى التطبيق وجدنا أن مجتمعاتنا الإسلامية فى حاجة إلى مراجعة شاملة لما بقى فيها من العلاقات الاقتصادية والسياسية والاجتماعية التى ورثناها من عهود الاستعمار . ولا بد من ثورة تشريعية تصاحب الثورة الاقتصادية والاجتماعية ونظم الحكم الجديدة . . وثورة علمية فى مجالات العلم جميعاً حتى تستطيع أن تساير وتقود التطور . . .

ومن هنا جاءت عناية مجتمعنا بالدراسات الإسلامية وتطويرها ، وفتح المجال أمام علماء العالم الإسلامى للقاءات يتدارسون فيها المشكلات التى تقابل الشعوب الإسلامية فى زحفها إلى حياة أفضل .

وشاهدنا تطوير الأزهر وربطه بواقع الحياة ، وفتح المجال أمام أبنائه ليتخصصوا فى أكثر من علم : طب ، هندسة ، اقتصاد، سياسة إلخ . . هذا إلى جانب الدراسات الأصيلة فى الأزهر كاللغة العربية وأصول الدين والشريعة . وقد بينت المذكرة الإيضاحية لمشروع قانون تنظيم الأزهر[1] دوره فى تاريخ العلم والإسلام وتأثيره فى إفريقيا وآسيا بخاصة ، « والتزام الأزهر قروناً طويلة الوقوف فى وجه كل محاولات العدوان مما ألزمه نوعاً من المحافظة ، لعلها كانت بعض الموقف الدفاعى الذى التزمه خلال تلك القرون ، فلما نشطت الحياة حواليه وزالت الأسباب التى كانت تضطره إلى المحافظة والتزمت ، لم يجد الوسيلة الملائمة التى تعينه على الحركة المتجددة التى تلائم بينه وبين عصره ، مع احتفاظه بخصائصه وقيامه بواجبه لحياطة الدين والمحافظة على تراث الإسلام »..

---

(١) وزارة الأوقاف وشئون الأزهر : الأزهر تاريخه وتطوره ص٥٠٤–٥١٤ .

« وكانت الثقافة الاستعمارية تحاول طوال السنين التى يسيطر فيها الاستعمار على العالم الإسلامى أن تلون أفكار أهله وعقائدهم ، وأن تضع فى نفوسهم موازين جديدة وقيماً جديدة يمكن أن تباعد بينهم وبين الإسلام . ولولا طبيعة المقاومة فى نفوس المسلمين لسحقتهم المحاولات المتوالية وأخرجتهم عن دينهم ، ولعلها بلغت من ذلك مبلغاً ما حين أوقعت فى أذهان كثير منهم أن الإسلام عبادة وأن العمل للحياة شيء آخر يختلف عن الدين أو يتعارض مع الدين » .

وبينت المذكرة إجماع أهل الغيرة كلهم من البلاد الإسلامية كلها على رأى واحد هو أن يعرف عالم الدين علوماً أخرى يعيش بها ويشارك بها فى النهضة ليرتفع مقام الدين عن أن يكون سبباً للتعطل والضياع فى المجتمع ، وسبيل ذلك أن تتطور معاهد الدراسات الإسلامية العالمية بحيث تقابل احتياجات النهضة ، فلا تقتصر على الدراسات الدينية وحدها ، بل يجب أن تجمع إليها علوماً أخرى تتحقق بها لكل خريج الخبرة والمعرفة وسلامة العقيدة ، ليعود هؤلاء الخريجون (الوافدون بخاصة من الأقطار الإسلامية) إلى مراكز القيادة فى كل مجالات النشاط فى العالم الإسلامى المتحرر . .

ذلك لأن كثيراً من الأقطار الإسلامية لاحظت فى بعثاتها أن المبعوثين يعودون وهم أحد رجلين : إما متخصص فى علوم حديثة لا يعرف شيئاً من أمر الدين ، وإما متخصص فى الدين لا يعرف شيئاً من أمر العلوم الحديثة غير قادر على المشاركة فى ألوان النهضة .

ومن أجل ذلك جميعه كان لابد من تجديد الأزهر وتطويره والاعتراف بمكانته وأثره ، مع الاحتفاظ له بطابعه وخصائصه وصفته التى استحق بها أن يبقى مسيطراً على تاريخنا وعلى العلاقات الوثيقة بيننا وبين إخوان لنا فى شرق الأرض وغربها أكثر من ألف سنة .

مجمع البحوث الإسلامية :

١٥ – وجاء نظام مجمع البحوث الإسلامية بحيث يكون « هو الهيئة العليا للبحوث الإسلامية ، ويقوم بالدراسة فى كل ما يتصل بهذه البحوث ، ويعمل على تجديد الثقافة الإسلامية وتجريدها من الفضول والشوائب وتجليتها فى جوهرها الأصيل الخالد ، وتوسيع نطاق العلم بها لكل مستوى وفى كل بيئة ، وبيان الرأى فيما يجد من مشكلات مذهبية أو اجتماعية تتصل بالعقيدة ، وحمل تبعة الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجعل من مهمة المجمع كذلك أن يتتبع ما ينشر عن الإسلام والتراث الإسلامى من بحوث الأجانب ودراساتهم للانتفاع بما فيها من رأى صحيح أو مواجهتها بالتصحيح والرأى . . »

وقد عقد المجلس مؤتمره الأول فى مارس ١٩٦٤ [١] وحضره ممثلو أربعين دولة . وكان للبحوث الاقتصادية فيه أوفر نصيب : بحثت فيه الملكية الفردية وتحديدها وملكية الأرض والموارد المالية وحق الفقراء فى أموال الأغنياء ونظام الحسبة ، إلى جانب دراسات عن الاجتهاد ماضيه وحاضره والتلفيق (الجمع) بين أقوال المذاهب . . وفلسفة الحرية فى الإسلام وعوامل انتشار الإسلام . .

وإذا رجعنا إلى قراراته وجدنا من بينها ما يتعلق بالمشكلات الاقتصادية منها « ويقرر المؤتمر بعد الدراسة المستفيضة لموضوع الملكية أن حق التملك والملكية الخاصة من الحقوق التى قررتها الشريعة وكفلت حمايتها ، كما قررت ما يجب فى الأموال الخاصة من الحقوق المختلفة . وأن من حق أولياء الأمر فى كل بلد أن يحدوا من حرية

---

(١) الأزهر – مجمع البحوث الإسلامية : المؤتمر الأول لمجمع البحوث الإسلامية . شوال ١٣٨٣ هـ – مارس ١٩٦٤ م .

التملك بالقدر الذى يكفل درء المفاسد البينة وتحقيق المصالح الراجحة . وأن أموال الظلم وسائر الأموال الخبيثة والأموال التى تمكنت فيها الشبهة ـ على من هى فى أيديهم أن يردوها إلى أهلها أو يدفعوها إلى الدولة ، فإن لم يفعلوا صادرها أولياء الأمر ليجعلوها فى مواضعها . وأن لأولياء الأمر أن يفرضوا من الضرائب على الأموال الخاصة ما يفى بتحقيق المصالح العامة . وأن المال الطيب الذى أدى ما عليه من الحقوق المشروعة ، إذا احتاجت المصلحة العامة إلى شىء منه أخذ من صاحبه نظير قيمته يوم أخذه ، وأن تقرير المصلحة وما تقتضيه هو من حق أولياء الأمر . وعلى المسلمين أن يسدوا لهم النصيحة إن رأوا فى تقديرهم غير ما يرون »[١] .

كما أشارت قرارات المؤتمر إلى الاستعمار والصهيونية ، وبينت أن الاستعمار وأعوانه هما الخطر الأول الذى يجب على المسلمين أفراداً وجماعات ودولا أن يجاهدوا بالمقاومة الجادة المستمرة حتى يتم تحرر المسلم قلباً وضميراً ووطناً ومعرفة . وأن كل تقصير فى مقاومة ذلك العدو هو عصيان لله تعالى وإثم كبير ، لأنه يقوى يد العدو على إنزال الأذى بالملايين من المسلمين . وأن الصهيونية التى يحاول الاستعمار بعد أن تحطمت أسبابه الظاهرة أن يغلف بها أهدافه تحت ستار جديد هى داء استعمارى خبيث ، ومجاهدتها فرض على كل مسلم ، والتخلف عن ذلك عصيان لله تعالى وإثم كبير .

وفيما يتعلق بالتطور قرر المؤتمر « أن الكتاب الكريم والسنة النبوية هما المصدران الأساسيان للأحكام الشرعية . وأن الاجتهاد لاستنباط الأحكام منهما حق لكل من استكمل شروط الاجتهاد المقررة وكان اجتهاده فى محل الاجتهاد » .

---

(١) المرجع السابق ص ٣٩٤ — ٣٩٥ .

« وأن السبيل لمراعاة المصالح ومواجهة الحوادث المتجددة هى أن يتخذ من أحكام المذاهب الفقهية ما يفى بذلك ، فإن لم يكن فى أحكامها ما يفى فبالاجتهاد الجماعى المذهبى ، فإن لم يف كان الاجتهاد الجماعى المطلق . وينظم المؤتمر وسائل الوصول إلى الاجتهاد الجماعى بنوعيه (أى المذهبي والمطلق) ليؤخذ به عند الحاجة »

وتوالت لقاءات المجمع مستجيبة لحاجاتنا المتجددة :

استعادة أرضنا السليبة ومسجدنا الأقصى الأسير وحقوق شعب فلسطين . رعاية شبابنا . بناء مجتمعنا على العلم والإيمان .

وتواكبت هذه الجهود مع جهود على الصعيد الإسلامى نرجو أن تكون ــ بتعاونها ــ أقدر على الوفاء بالمأمول منها .

والخلاصة

١ ــ أن المسائل الدينية المحضة وهى العقائد والعبادات والحظر والإباحة تؤخذ من نصوص القرآن وبيان السنة لها بالقول أو العمل أو التقرير . ولا يجوز إحداث عبادة جديدة أو الإتيان بعبادة مأثورة على غير الوجه الذى كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وجمهور أصحابه لأن الله أكمل للدين أصوله وفروعه بكتابه وببيان رسوله .

٢ ــ أما الأمور الدنيوية من حلال وحرام وسياسة واقتصاد وآداب :

(ا) فما كان فيه نص محكم قطعى فالواجب أن يعمل به ولا مجال للاجتهاد فيه ، ما لم يعارضه ما هو أرجح منه من النصوص الخاصة بموضوعه أو العامة : كنفى الحرج ونفى الضر والضرار وكون الضرورات تبيح المحظورات بنص قوله تعالى : (إلا ما اضطررتم إليه) . ويلحق

بهذا القسم ما يدل عليه نص صحيح وأجمع عليه الصدر الأول أو عمل به جمهورهم .

(ب) ما ورد فيه نص غير قاطع الدلالة ، ففيه مجال للاجتهاد ، ومثله يستنبطه بعض العلماء من الكتاب والسنة فى كل زمان . وما يتعلق بالأمور العامة كالأحكام القضائية ونظام الحكم والاقتصاد فرده إلى أولى الأمر يتشاورون فيه وينفذونه بعد المشورة .

(حـ) ما ورد فيه نص غير تكليفى كالأحاديث المتعلقة بالعادات والطعام والشراب والطب ونحو ذلك . . فهذا يسميه العلماء إرشاداً لا تشريعاً وكذلك الفتاوى الشخصية ، فالأفضل العمل به ما لم يمنع من ذلك مانع من شرع أو مصلحة عامة أو خاصة .

(د) ما سكت عنه الشارع فلم يرد فيه فعل أو ترك فهو الذى عفا الله عنه رحمة وتخفيفاً[1] ، فإن كان من أمر الدين المحض فهو بين العبد وربه ، وإن كان من أمر المجتمع (اقتصادياً وسياسياً واجتماعياً وثقافياً . .) فرده إلى أولى الأمر وفق الشروط التى سبق عرضها فى الاجتهاد .

---

(١) هناك تلخيص لقضية التطور تستطيع الرجوع إليه فى خاتمة كتاب يسر الإسلام لرشيد رضا ص ٥ — ٧٩ . وفى مصادر الشريعة يمكن الرجوع إلى محمود شلتوت : الإسلام عقيدة وشريعة من ص ٤٨٩ — ٥٧١ . وفى أعمال مجمع البحوث الإسلامية مادة علمية قيمة لا يستغنى عنها فى دراسة مشكلات تطور المجتمع من وجهة النظر الإسلامية ، وبخاصة فى قضايا التطور الاقتصادى ، وبها عنيت الدورة الثانية سنة ١٩٦٥ والثالثة عام ١٩٦٦ ، وتتابعت دوراته حتى السابعة عند كتابة هذه السطور فى شعبان ١٣٩٢ (سبتمبر ١٩٧٢)

٣ ـ أن تطورنا الاجتماعي فتح أمام الدراسات والبحوث الإسلامية أبواباً جديدة وأقام المعابر بين الدراسات الإسلامية والمجتمع بحيث يمكن بالجهود المشتركة أن تزول الجفوة المفتعلة التي حاول الاستعمار أن يوجدها بين الدين والحياة .

الفصل السابع

المسجد... فن مؤمن

لقاء بين الدين والحياة :

كثيراً ما يقترن فى ذهنى مشهدان :

الأول : مشهد الحجيج فى عرفات وقد امتدت أيديهم إلى الله بالدعاء .

والثانى : مشهد القاهرة وقد امتدت مآذنها ليتردد من فوقها نداء الوحدة والتوحيد .

وإذا ما سرت فى طرقات القاهرة فأنت تسير فى رحلة مع التاريخ والإيمان ، وأنت واجد فى أطرافها وقلبها سجلاً مفتوحاً أمامك :

أهرامات من مصر القديمة شادها العلم والإيمان . مقابر منحوتة فى الصخر عليها مشاهد الحساب والجزاء والدار الآخرة . كنائس أوى إليها الإيمان وارتفع منها نداء السلام . مآذن سامقة تؤلف مع هذا كله نشيداً كبيراً عنوانه « مصر المؤمنة » .

فى زيارتك لمتاحفها التاريخيـة الكبرى : مصرية قـديمة وقبطية وإسلامية، ترى صوراً من التلاقى بين الدنيا والآخرة، بين العلم والإيمان، بين المجتمع والدين . هـذا اللقاء الذى نبع من الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، فأصبحنا فى منطق الإيمان لا نفصل بين عمل الدنيا والآخرة ، فالصلاة لها مضمونها الاجتماعى ، وللعمل الاجتماعى مستواه الدينى من الإخلاص وصدق التوجه إلى الله .

محاربون عابدون :

وإذا كان هذا اللقاء بين الدين والحياة خطاً مستمراً فى الوجود المصرى المتدفق منذ فجر تاريخه ، استمرار النيل نفسه ، فإن هذا الخط يزداد

وضوحاً وقوة وترتفع نبرته إذا ما كان الوجود المصرى مهدداً بخطر :

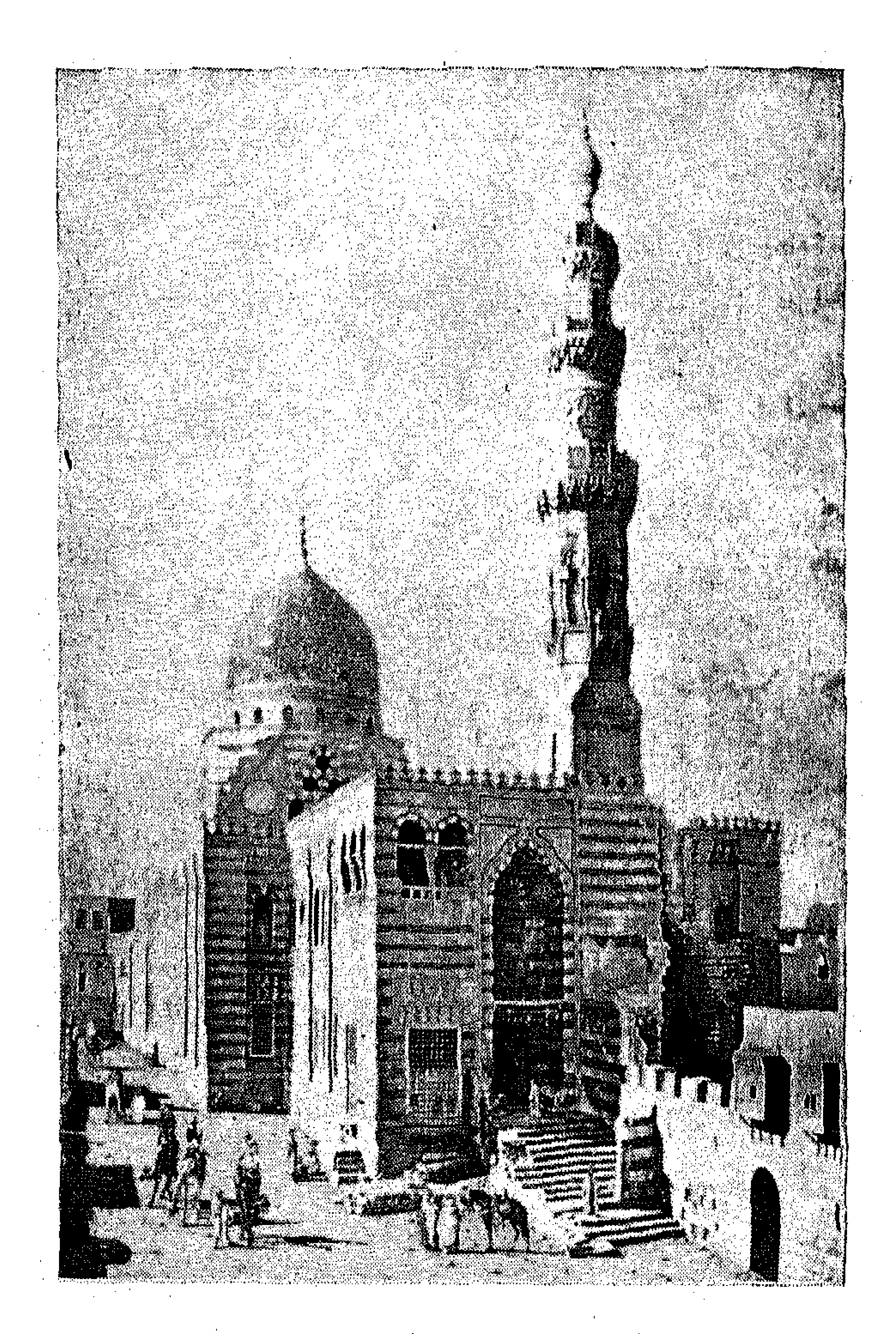
هنا يحس المصرى حاجته العميقة إلى العلم والإيمان ، يعبر عنهما بجيش يحمى أرض الوطن ومنجزاته ، وإلى عقيدة عميقة تحمى روحه .

وإذا عدنا إلى تاريخنا وجدنا هذا الترابط بين إنشاء المعابد الكبرى وخوض المعارك الكبرى دفاعاً عن الحياة وكرامة الحياة :

فى مصر القديمة عندما غزا الهكسوس مصر وتراجعت العاصمة إلى ثنية قنا عبر المصرى عن عقيدته بمعابد ضخمة تصور مشاهد الحياة الدنيا والآخرة فى نسق متصل . وتستطيع أن تراها — أوضح ما تراها — فى معابد الكرنك ووادى الملوك وما وراء ذلك جنوباً حتى أبو سمبل ، والآثار متصلة بعد هذا إلى قلب إفريقية وإن بعد بنا تتبعها عن مسار الحديث الذى نحن بسبيله ، وقد نعود إليه فى حديث لاحق .

وعندما دخلت المسيحية مصر ، تبلور الدفاع عن الوجود المصرى فى الدفاع عن العقيدة المسيحية ، وشدد الرومان النكير على من يقولون بالعقيدة المونوفيزية وتوحد اللاهوت والناسوت . ورفض المصريون التدخل الرومانى فى عقيدتهم ، وبرز هذا الرفض صبراً واستشهاداً وأديرة تحتمى بها العقيدة وتنطلق منها مقاومة الاضطهاد .

وعندما جاء الإسلام مصر ليحررها من الطغيان الرومانى فتح الباب رحباً أمام السماحة الدينية والإخاء الشامل . ونستطيع أن نربط تاريخياً بين الضغوط التى تعرضت لها بلادنا فى غارات الصليبيين والتتار ، وبين مجموعة المساجد الكبرى التى تركها لنا العهد الأيوبى ، والعهد المملوكى : مساجد ارتبطت بمعركة المصير وقتئذ . وكانت بما فيها من فن وشموخ تعبيراً صامداً عن شعب صامد يحارب بيد ويبنى بيد .



مسجد قايتباى

فى مجتمعنا المعاصر :

وأنت واجد هذه الظاهرة فى مجتمعنا المعاصر .

فبعد هزيمة يونية (حزيران) ١٩٦٧ اتجهت عنايتنا إلى إعادة بناء قواتنا المسلحة ودعم القاعدة الشعبية الاقتصادية التى تستطيع أن تمد الجبهة بالرجال والسلاح .

وفى الوقت نفسه ترى تسابقاً إلى بناء المساجد بالحلول الذاتية فى سرعة وفاعلية تفوق الجهود الحكومية نفسها .

وإذا كان عدد المساجد فى جمهوريتنا الآن يقرب من عشرين ألفاً ، فإن أقل من أربعة آلاف منها تتبع وزارة الأوقاف تبعية مباشرة . والنسبة بهذا ١ : ٤ .

والتمييز بين مساجد الوزارة والمساجد الأهلية باعتبارها حلولا ذاتية ، لا مجال له ، لأن وزارة الأوقاف لاتزيد عن كونها « حلا ذاتيًّا » :

ففى النظام الحكومى لأية دولة ، لا بد من قيام وزارة للداخلية والخارجية والخزانة . . ولكن لا يمكن أن تقوم وزارة للأوقاف إلا إذا أوقف أهل الخير من أموالهم — جيلا بعد جيل — ما تجد الدولة نفسها أمام مسئولية تنظيمه وإيجاد كيان إدارى مسئول عنه .

لماذا المساجد ؟

وكنت أسمع من بعض الأصدقاء تعليقات :

— لماذا لا تنفق هذه الأموال على أمر غير بناء المساجد ؟ والدين يسر ، ويمكن أن يصلى الإنسان فى أى مكان ؟

وعندما عدت إلى تاريخنا أسائله فى عصوره الفرعونية والمسيحية والإسلامية وجدت هذا الترابط بين بناء القوات المسلحة وبناء دور العبادة

ترابطاً أشرت إلى بعض مشاهده فى صدر هذا الحديث .

والمسجد من حيث وظيفته « جامع » . .

ولم يعرف الإسلام المسجد الوحيد الوظيفة إلا فى عهد ضعفه . . فى حين أنه فى عهود ازدهار الإسلام كان المسجد « جامعاً » لعدة وظائف :

كانت فيه وإلى جواره المدارس ومساكن طلاب العلم والأساتذة والمستشفيات والرعاية الاجتماعية وسبل المياه ومكاتب حفظ القرآن الكريم .

ولعل من أبرز النماذج بين أيدينا الجامع الأزهر ومجموعة قلاوون ومسجد السلطان حسن وبرقوق .

تأملات فى المسجد :

وكنت وما زلت أحب الاعتكاف وحيداً فى بيوت الله بعض الوقت ، أو أدير حواراً فيه مع صديق ، اقرأ معه المسجد كأنه كتاب مفتوح . وزاد هذا الإحساس فى نفسى بعد هزيمة يونية ١٩٦٧ .

وكنت أحاول أن أتلمس مظاهر هذا الترابط بين المسجد كهندسة معمارية ، والإقبال على بنائه، والعمل من أجل معركة المصير بما تحتاج إليه من قيم وأخلاقيات .

وأنت إذا تأملت المسجد وجدته جهداً اشترك فيه عدد ضخم من الفنانين الذين يعملون بمواد متعددة : الحجر ، الرخام ، الحديد ، النحاس ، الخشب ، الجص ، ويستخدمون مجموعة كبيرة من الألوان ، ويعالجون ذلك كله بآلات متعددة ، ليكون المسجد بعد هذا وحدة فنية متكاملة تعبر بصور متعددة عن العقيدة الواحدة . ولنأخذ نماذج من ذلك:

المئذنة :

إذا ما نظرت إلى المئذنة . . ولتكن مئذنة مسجد قايتباى ، فستقف فيها عند عدة ملاحظات :

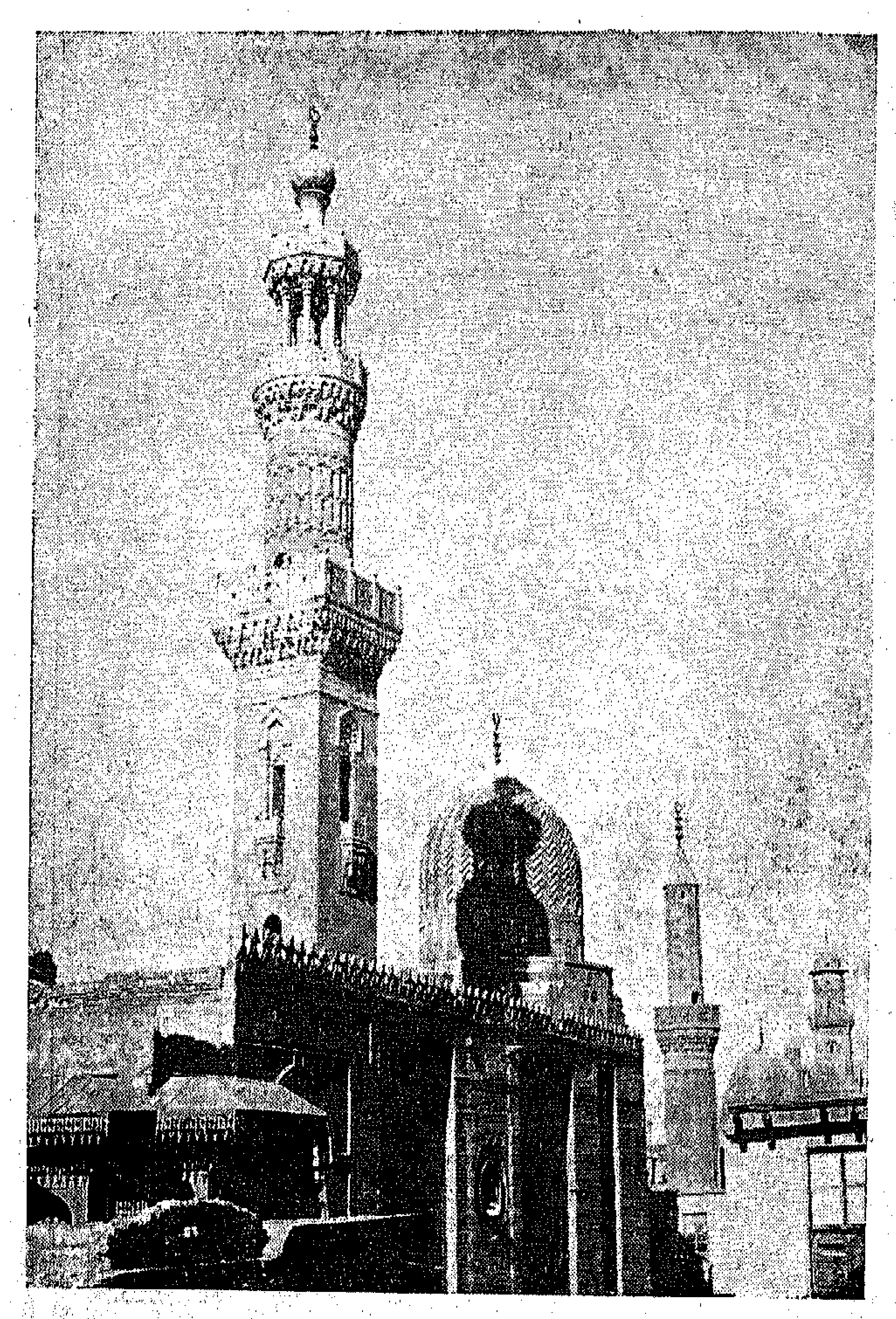
١ — أنها أولا نابعة من بناء المسجد نبعاً عضويًّا كأنها ذراع ممتدة داعية ، أو شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء .

٢ — وهى تبدأ بقاعدة مربعة ، تربيع المسجد نفسه ، وتتحول القاعدة فى تدرج إلى مثمن فإلى دائرة . وفوق هذا تتحول الدائرة إلى أعمدة . . أعمدة رشيقة يخالط البناء فيها الفضاء . وفوقها خوذة المئذنة كأنها كرة طائرة مرفوعة على عمد . وينتهى هذا بهلال صغير هو رمز السماء كأنه معلق فيها .

٣ — هذا الانتقال من حجم المسجد الراسخ ، إلى تدرج المئذنة ، يسحب نظرك فى رفق من الأرض إلى السماء . من المادة إلى الروح . من كثافة الأرض إلى رقة السماء وشفافيتها . ويرتبط به تقسيم المئذنة نفسها . إنه تقسيم متدرج تأخذ الأطوال فيه فى الصغر كلما اقتربت من قمة المئذنة . ولو كان تقسيم الأجزاء متساوياً لكانت حركة العين صاعدة هابطة فيه . ولكن التقسيم المتدرج يسحب النظر من أطول الأجزاء إلى أقصرها . . من الأرض إلى السماء .

٤ — ويرتبط هذا أيضاً بحجوم الأجزاء وأبعادها . المربع الأدنى للمئذنة هو أكبر الأجزاء قطراً . ويليه المثمن ثم الدائرة ثم الأعمدة ثم الخوذة والهلال . كل هذا التناغم يستهدف أمراً أساسيًّا : أن يحرك عينيك من الأرض إلى السماء فى رفق . وكأن الأعمدة فى أعلى المئذنة أصابع يد داعية متجهة إلى الله تبارك وتعالى .

هل هذه المئذنة هى صورة رمزية لليد الداعية ؟



مئذنة وقبة مدرسة الأشرفية

وهل ارتباطها بالمسجد هو ارتباط اليد بالجسم ؟

وهل تقسيمها هو « المفاصل » التى تربط اليد ، بأصابعها ، بالجسم فى حركة الدعاء ؟

الشرفات :

ويتكامل هذا التناغم المعمارى مع شرفات المسجد ، هذه الوحدات الصغيرة التى تزين الأجزاء العليا من جدرانه .

ماذا تحس به وأنت تنظر إليها ؟

أنت تحس أن الفنان الإسلامى لم يختم بناء المسجد بخط صارم يفصل بين الأرض والسماء .

فخط السماء – كما نسميه فنياً – خط مزخرف كأنه حديقة ، ولكنه يمتاز عن الحديقة بأن الفراغ بين الشرفات فراغ زخرفى .

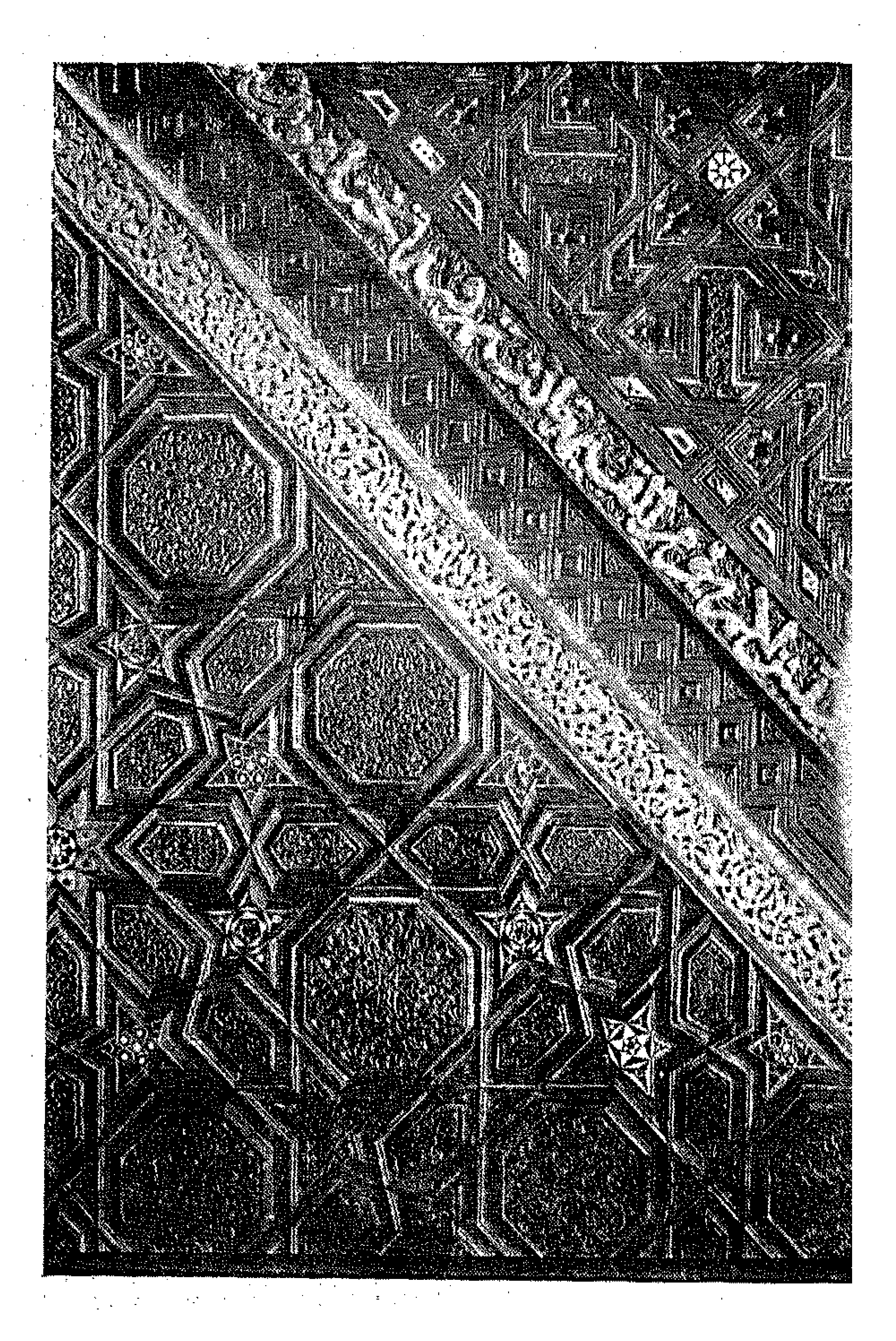
الفنان المسلم يتحرّى فى الفضاء نفسه أن يكون زخرفياً . فحركة عينيك إذا صعدت من الأرض إلى السماء ، ستنتهى بزخرف تختلط فيه السماء بالفضاء ثم ينطلق بعد هذا إلى السماء . وفى حركة عينيك أيضاً من الفضاء ستنتهى إلى فضاء محدود زخرفى بين الشرفات – أو عرائس السماء كما تسمى أحياناً – ثم ينساب نظرك بعد هذا إلى المسجد .

ولك أن تقول إن الشرفات والمئذنة تتعاون جميعاً فى الربط بين الأرض والسماء ، والتوافق بينهما فى حركة رقيقة متدرجة .

القانون والجمال والتماسك :

ولننتقل الآن إلى مراحل المسجد نتأمل بعض ما فيه .

سنقف عند المنبر . وهذه الأطباق النجمية على جوانبه . سنرى هذه



تفاصيل من منبر المسجد الأقصى

الزخارف الهندسية الدقيقة بقوانينها الصارمة : مثلثات . مربعات . مخمسات . مسدسات . . أشكال تتعدد أضلاعها . وتخرج من شكل لتدخل فى شكل آخر . والخط مع تكسره وزواياه الحادة والقائمة والمنفرجة تحس به ممتداً جميلا .

— ما هذه القوانين الهندسية الدقيقة التى تحكم العمل ؟

— وما هذا الجمال الذى يبدو به العمل بعد تمامه ؟ جمال تبدو به قواعده الهندسية كأنها ذابت فى التعبير المؤمن الذى أراده الفنان .

ولنسائل أنفسنا : ماذا نريد فى الحياة أروع من هذا :

١ — دقة فى القانون . .

٢ — جمال فى الأداء . .

٣ — تماسك بين الأجزاء . .

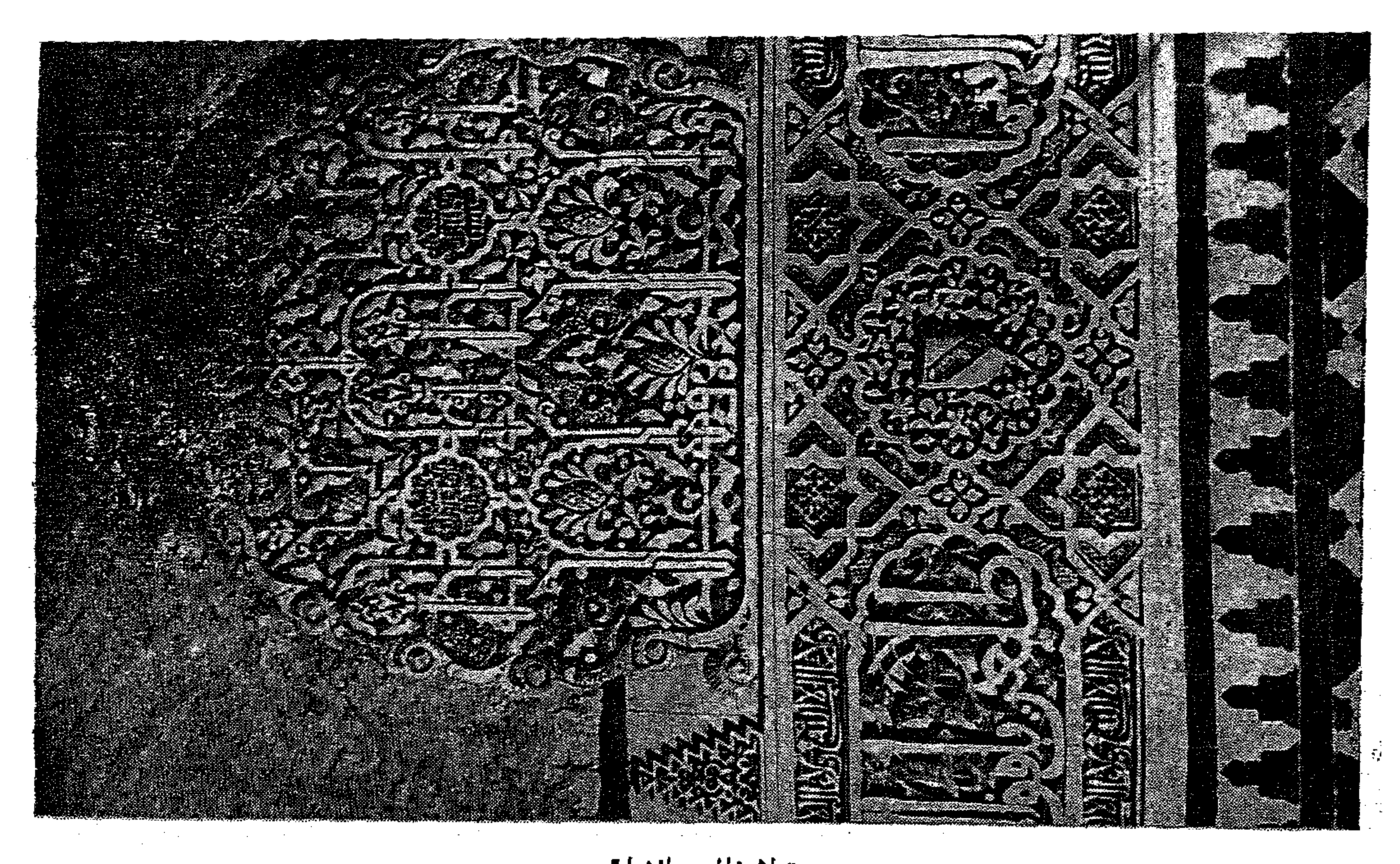
وهل اكتفى الفنان الإسلامى بأن يجعل من المنبر مكاناً يلقى من فوقه الخطيب عظاته . . أو صور بفنه على جوانب المنبر عظته الدائمة ؟ وإذا بأذنك تسمع عظة الخطيب ، وبعينيك ترى عظة الفنان على جوانب المنبر . وهل هناك من فارق فى المضمون بين العظة الناطقة والفن المبدع وصفوف الصلاة فى دقتها وجمالها وتماسكها ؟

الجزء والكل :

ولننظر بعد هذا إلى الزخارف الرخامية التى تزين أرض المسجد ، وإلى طبيعة الزخرفة الإسلامية فى التكرار .

سترى الجزء الصغير ، إذا نظرت إليه وحده ، جميلا . وهو يتكامل مع الأجزاء الأخرى . وسترى الكل جميلا ، وله وحدة وتكامل فى الوقت نفسه .

وتنتقل عيناك من الجزء إلى الكل . ومن النظرة الشاملة إلى النظرة



« لا غالب إلا الله »

كتابة كوفية ذات خلفية من الزخارف النباتية من غرناطة

المستأنية المتأملة فى الأجزاء الصغيرة مرة أخرى ، وفى ترابط هذا كله .

ستری وضوح شخصية الجزء الصغير . ووضوح الشخصية المتكاملة .. وتماسك الجزء فى الكل .

وأنت هنا ــ فنياً ــ أمام المجتمع الإسلامى الذى يرعى الصغير والكبير ، ويحتفظ بموقف متزن بين شخصية الفرد وشخصية المجتمع . .

وتستطيع أن تتابع دراستنا لمعانى المحدود والمطلق ، والرخيص الذى يتحول إلى نفيس ، حين تمتد إليه اليد المفكرة الصناع . . فتجعل من قطع الخشب الصغيرة وحطام الرخام تحفاً فنية رائعة . .

كثيرة هى الدروس التى تسمعها من المسجد فى صمته ، وتقرؤها على حوائطه وفى محرابه وأرضه .

وكثيرة هى الوظائف التى تستطيع أن تؤديها المساجد للمجتمع . وتشتد إليها الحاجة إذا ما كان المجتمع على معبر وعر بين واقعه وآمال غده . . .

هنا نجد التلاقى بين المحراب والميدان . . بين المنبر وأبراج المراقبة والمرابطة على الحدود . بين صوت المؤذن وصوت المعركة . بين كلمة السلام تشيع فى جو المسجد، ونداء السلام القائم على العدل، وهو هدف كبير نسعى إليه .

بهذا يصبح المجتمع مسجداً كبيراً ، والمسجد « جامعاً » لوظائف كثيرة :

وبعد ؛ ففى القرآن الكريم كثيراً ما يقرن ربنا تبارك وتعالى بين نزول الوحي من السماء ونزول المطر : هذا يحيى الأرض بعد موتها ، وهذا تحيا به القلوب . .

ومن بيت الله يشرق نور الإيمان، وعلينا أن نترجمه عملياً إلى واجبات فى حياتنا اليومية تزكو بها الحياة كما يزكو النبات بماء السماء .

فليكن إيماننا عملا ، وعملنا مؤمناً ، لنقيم « مجتمع العلم والإيمان » على هدى وبصيرة .

داعياً الله أن يبارك جهودنا حتى نحرر أرضنا المغتصبة وأوطاننا السليبة ، ونعيد السلام إلى أرض السلام .

الفصل الثامن

أمام لجنة الدستور المصرى
١٩٧١

ألقيت هذه الكلمة أمام لجنة الاستماع المشكلة برياسة السيد رئيس مجلس الشعب فى ١٩٧١/٦/١٢ فى قاعة مجلس الشيوخ . القاهرة

السيد رئيس مجلس الشعب

أيها الإخوة الأعضاء

أشكر لكم أن أتحتم لى هذه الفرصة لأتحدث إليكم حديثاً يتصل أساساً بالمقومات الأساسية للمجتمع مع تركيز على جانب الإيمان والأخلاقيات التى دعا إليها السيد الرئيس محمد أنور السادات .

وحينما كنت أعدّ ذهنى لهذا الموضوع رجعت إلى الموسوعة العربية للدساتير العالمية ، التى تفضل مجلس الشعب بتوزيعها . رجعت بصفة خاصة إلى دستورى سنة ١٩٥٦ و ١٩٦٤ فوجدت فيهما النص على أن الإسلام دين الدولة ، واللغة العربية لغتها الرسمية ، وأن السيادة للشعب ، كما وجدت النص على حرمة البيوت وحرية الاعتقاد والرأى والبحث العلمى ، وأن المصريين لدى القانون سواء ، وأن وحدتنا الوطنية التى يصنعها تحالف قوى الشعب العامل هى التى تقيم الاتحاد الاشتراكى العربى ، ليكون السلطة الممثلة للشعب ، الدافعة لإمكانيات الثورة ، والحارسة على قيم الديمقراطية السليمة ، ووجدت تأكيداً لنظامنا الاشتراكى بدعامتيه من الكفاية والعدل .

وتذكرت ما كان من قيام مراكز القوى ، قيامها بعد قوانين يولية الاشتراكية سنة ١٩٦١ ، وقيامها بعد هزيمة يونية سنة ١٩٦٧ ، واندفاعها المحموم بعد رحيل القائد المعلم جمال عبد الناصر ، تحاول أن تصوغ من أحزاننا ، ثم من صبرنا ووفائنا وصمودنا ، أسلحة لا توجهها إلى عدونا ، وإنما إلى صدورنا ، وأجهزة استماع تقتحم علينا

سرائرنا وبيوتنا ، مما تذكرت به مع فارق فى الهدف والوسيلة قول الشريف الرضى (١) :

فلتدخلنّ عليه قبّتــه . ولّاجةٌ تخفى على الرَّصَدِ
وهواجمٌ يَدْفَعْنَ كُلَّ يَدٍ ونَوَافذٌ يهزأْن بالزَّرَدِ

نعم . . دخلت علينا بيوتنا أجهزة استماع ولاّجة تخفى على الرصد ، وهواجم تحت ستار الثقة والأمن تدفع كل يد ، ونوافذ تهزأ بالزرد والحرس الشديد ، وتقتحم الأسوار والأسرار والمخادع .

كل هذا ، ونصوص الدستور بين أيدينا ، وآيات الله تتلى بيننا :

(يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ ، وَلَا تَجَسَّسُوا ، وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا . أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً ، فَكَرِهْتُمُوهُ ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ)(٢) . . .

وقوله تعالى : (يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)(٣) .

بل إن القرآن الكريم ليسجل قول الله تعالى فى الأعماق التاريخية

---

(١) ديوان الشريف الرضى (١ : ٣٩٧) ط . بيروت ، ١٩٦١ .

(٢) سورة الحجرات : ١٢ .

(٣) سورة الأنفال : ٢٧ .

لأخلاقنا وعقائدنا فيقول : (إِنَّ هَٰذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَىٰ . صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ)[١] .

العبرة إذن ليست فى صياغة المواد ، ووضع النصوص ، إنما العبرة فى التطبيق ودعم الصلة — ما استطعنا — بين مواد الدستور والقوانين والممارسة اليومية .

ومن أجل ذلك فإنى أقترح أن ينص فى الدستور على هذا الترابط العضوى الوثيق — بل المتكامل — بين الدستور والقوانين والممارسة اليومية على المستوى الشعبى والسياسى والحكومى ، بحيث لا تأتى الممارسة — مهما كان مصدرها — على النصوص تنقصها من أطرافها ، فلا تبقى منها عملياً إلا لوحة جميلة للحرية تختفى وراءها أجهزة اسماع إلكترونية .

ولعل فيما حدث أن يكون ختاماً لمرحلة يتحتم معها القضاء على مراكز القوى ، وإيذاناً بميلاد فجر جديد ، تنسج أمتنا بالعلم والإيمان صفحته المشرقة وتعيش ، كما قال السيد الرئيس محمد أنور السادات ، أسرة واحدة .

قد يكون الاتجاه الغالب أن تصاغ نصوص الدستور جامعة مانعة ، تتماسك موادها حتى تصبح كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، ويحول بين أمتنا المؤمنة وتكوين مراكز القوى ، فإذا ما جاءوا دستورنا ما استطاعوا أن يظهروه وما استطاعوا له نقباً .

ولكنى أومن أن حياطة الشعب لدستوره باعتباره تجسيداً لصورة حياتنا ، فى أعماقنا الوطنية ، وحاضرنا المناضل ، ومستقبلنا الذى نحلق نحوه بجناحين من العلم والإيمان — أومن أن هذه الحياطة أقوى من المواد نفسها ومن نصوص الدستور .

---

(١) سورة الأعلى : ١٨ ، ١٩ .

وقد رأى مجتمعنا المؤمن نفسه فى مرآة ذاته يومى ٩ و ١٠ يونية سنة ١٩٦٧ ثم يومى ١٤ و ١٥ مايو سنة ١٩٧١ ، رأى نفسه شامخاً فوق الهزيمة العسكرية مرة، والتآمر الداخلى مرة، مقابلا عداوات فرضها عليه الاستعمار العالمى والصهيونية والعدوان الإسرائيلى ، وعداوات فرضتها المطامع وشهوات السيطرة ومراكز القوى. . .

ولقد أجرى شعبنا جراحته لنفسه ، وما أقسى أن يجرى الإنسان لنفسه جراحة مرة بعد مرة ، أجراها وهو فى ميدان القتال ، ولكن سرعان ما نبتت مكان الأجزاء المبتورة أجزاء جديدة خضراء نضرة نقية فى طهارة الندى واستقامة الشعاع .

وبدا شعبنا المؤمن المتجدد دائماً ، الصامد دائماً ، برغم المكايد والجراح والآلام ، كأنه كلمة الحق ، كلمة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها .

وأسائل نفسى : ما العاصم الأكبر الذى عصم أمتنا ؟ أكان نصوصاً مكتوبة أم روحاً دافعة دافقة ؟

إن كل مواطن فى أمتنا هو الإجابة الحية المستمرة عن هذا السؤال . .

المواطن الذى يحمل ميراثاً حضاريًّا ، أصيلا ، مستمرًّا، متجدداً ، والذى تعود الصعود فوق نكساته إلى آفاق آماله ، محدداً رؤيته وموقفه ، متخذاً إلى غده سبيلا .

وإلى هذه الروح المبصرة المؤمنة ينبغى أن تتجه عنايتنا حماية ورعاية، وتأصيلا وازدهاراً على مستوى تكوين الفرد والأسرة والمجتمع ، فى المدرسة والحقل ، والمصنع والجامعة ، ومنتديات الشباب ، وميادين القتال .

السيد/ رئيس مجلس الشعب

حضرات الإخوة

فى هذا الصدد أقترح تعديلات وإضافات فى بعض المواد المتصلة بالمبادئ العامة بمقومات المجتمع والأخلاقيات التى أوصى بها الرئيس محمد أنور السادات كنماذج لخطنا الفكرى بعد تصحيح ١٤ و ١٥ مايو ، هذا بالإضافة إلى ما جاء بدستور سنة ١٩٦٤ .

١ ـ العلم والإيمان والتضامن الاجتماعى أساس المجتمع المصرى .

٢ ـ الرعاية الأخلاقية حق للمصريين جميعاً تكفلها الدولة بالتربية والأسوة الحسنة .

٣ ـ القرآن الكريم ، وقد جاء مصدقاً لكل الأنبياء والمرسلين ، هو المصدر الأساسى للأخلاق فى مجتمعنا المصرى ، وحياة الأنبياء فيه هى المثل العليا للحياة الإنسانية .

٤ ـ ترعى الدولة التراث المصرى والعربى والإسلامى ، وتساهم فى صيانة التراث الإنسانى فى أبعاده الزمانية والمكانية .

٥ ـ الشريعة الإسلامية هى المصدر الأساسى للتشريع .

٦ ـ الأخلاق أساس فى تقييم العاملين مصداقاً لقول الله تعالى :

(إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِىُّ الْأَمِينُ)(١) .

٧ ـ الوحدة الوطنية مصدر أساسى لحركة مجتمعنا على أساس من الوحدة والسماحة .

٨ ـ المجتمع المصرى أسرة كبيرة تعيش فى ظلها الأسر الصغيرة فى حب ومرحمة .

٩ ـ رعاية الوالدين والإحسان إليهما واجب إنسانى وقومى ودينى .

---

(١) سورة القصص : ٢٦ .

١٠ ــ الكفاية العلمية والأخلاقية أساس فى التقويم لتولى المسئوليات القيادية .

ولقد كرم الله العلم والإيمان فى كتابه عندما تحدث عن خاتم الأنبياء والمرسلين قائلا : ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾(١) .

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾(٢) .

السيد الرئيس

حضرات الإخوة

ما طبيعة الإيمان والأخلاق التى نريدها ؟

هذا الخلق له من حيث الطبيعة ثلاثة أبعاد رئيسية :

(أ) أن يحدد المستوى الذى يتم به فى أى عمل . .

(ب) أن يدفع الفرد والمجتمع إلى أهدافه . .

(جـ) أن يحول دون الانحراف .

ومن ناحية مصادره له أيضاً ثلاثة أبعاد هى :

١ ــ مصدر له عمق زمنى يشمل الجهد الصالح فى تاريخ الإنسانية كلها ، وفى مقدمتها جهود الأنبياء والمرسلين ﴿وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَٰذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾(٣) .

---

(١) سورة طه : ١١٤ .

(٢) سورة القلم : ٤ .

(٣) سورة هود : ١٢٠ .

٢ ــ مصدر له بُعْدٌ مكانى لا يقتصر على أمة واحدة ، بل يشمل آفاق الأرض جميعها . وفى القرآن نجد النماذج الكثيرة القائمة فوق أرضنا وغير أرضنا ، ونماذج تسعى إلى مطلع الشمس ومغربها ، بل إن هذه النماذج تتطلب أن تتلمذ الإنسانية عليها ولو أمضت حياتها فى سبيل البحث عنها كما رأينا فى قصة موسى والعبد الصالح .

٣ ــ مصدر ثالث نستطيع أن نسميه البعد الموضوعى أو التكامل الموضوعى ، ذلك لأن هذه الأخلاق لا تقتصر على ناحية واحدة بل تشمل جوانب حياتنا المختلفة : وعلى سبيل المثال

نراه فى قصة شعيب اقتصاداً وعدلا . . .

ونراه فى قصة يوسف عفة وتخطيطاً علمياً . .

ونراه فى قصة عيسى دعوة إلى المحبة والمودة . .

ونراه صراعاً فى قصة موسى ، صراعاً مع عداوات داخلية فى بنى إسرائيل . .

ونراه فى قصة نوح مسيرة بالإنسان تفصل بين عهد وعهد . .

ونراه فى قصة إبراهيم حواراً عقلياً حول مصدر الإيمان وعملا متصلا فى أكثر من جهة : فى العراق والشام ومصر والحجاز . .

ونراه عند داود ترتيلا وتسبيحاً . .

ونراه عند أيوب صبراً . .

ونراه عند محمد صلى الله عليه وسلم بناء متكاملا لمجتمع جديد يبنى والوحى ينزل . بناء يضم مرافق الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية . كافة .

هذا مع جمع الإنسانية كلها إيماناً بكل نبى ورسول ، وإخاء يتمثل فى دعاء الرسول عقب صلواته : « اللهم إنى أشهد أنك أنت الله لا إله إلا أنت وأن العباد كلهم إخوة » .

إن مهمة الرسول الأعظم يحددها قول الله سبحانه وتعالى :

(يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ) (١) .

السيد الرئيس

حضرات الإخوة

ما هى حياتنا الجديدة التى يحددها الدستور ؟

إنها رغيف خبزنا ، وكساء أجسادنا ، والدفء فى شتائنا ، والعمل فى مصانعنا وحقولنا ، والعلم فى معاهدنا وفكرنا ، والسلاح القادر لجيشنا ، والكفاية والعدل ثماراً لاشتراكيتنا .

إنها الايمان العميق فى قلوبنا ، والصلاة والقرآن فى مساجدنا ، والسماحة والأخوة فى ديننا ، والوحدة الوطنية فى مجتمعنا ، والكلمة الشريفة على شفاهنا ، والأخلاق الكريمة فى حياتنا ، والأمن والأمان فى بيوتنا .

إنها البسمة على فم الشيخ حين يطرق باب الشيخوخة هادئاً مبتسماً كأنما يدخل حديقة الوفاء ، والنظرة الآمنة فى عين الطفل والأم بدون فزع من طارق الليل ينتزع الأب عدواناً وظلماً .

إنها روح الأسرة التى نادى بها الرئيس محمد أنور السادات تجمع الأمة حاكماً ومحكوماً ، فتصبح كما تعلمنا من رسول الإنسانية عليه الصلاة والسلام كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى .

إنها الحركة الواعية نحو مستقبل نستعيد فيه أرضنا ومقدساتنا وحقوق شعب فلسطين ، ننطلق من قاعدة شعبية صلبة ووحدة وطنية ، ننطلق

---

(١) سورة الأعراف : ١٥٧ .

علماء فى عصر العلم ، مؤمنين كما عشنا دائماً ، باسطين اليد بالأخوة والسلام لكل محب للتقدم والسلام ، مدافعين بالسلاح عن حق لا نصل إليه إلا بالسلاح .

السيد رئيس مجلس الشعب

أيها الإخوة

رعى الله أمتنا فى مواقع البناء والنضال ، وأعاننا على إقامة دستورنا وحياتنا على العلم والإيمان .

(رَبَّنَا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا)[1] .

---

(١) سورة الكهف : ١٠

الفصل التاسع

مناسَبات إسلاميّة

نصف شعبان فى الدين والحياة*

يرتبط النصف من شعبان فى حياتنا الإسلامية بتحويل القبلة من المسجد الأقصى إلى المسجد الحرام فى السنة الثانية للهجرة ، قبل غزوة بدر الكبرى . وكان هذا التحويل هزة فكرية عميقة فى مجتمع المدينة ، ترددت أصداؤها بين كل قوى المجتمع : المسلمين والمشركين واليهود والمنافقين .

ولكى تتضح الصورة أمامنا ينبغى أن نضعها فى سياقها التاريخى :

مكانة البيت الحرام فى نفوس المسلمين عميقة أصيلة . هو أول بيت وضع للناس . رفع قواعده إبراهيم وإسماعيل . واستجابا لأمر الله « أن طهرا بيتى للطائفين والعاكفين والركع السجود » .

يقول عليه الصلاة والسلام وهو فى طريق هجرته مناجياً مكة : « إنى لأعلم أنك أحب البلاد إلى ، وأنك أحب أرض الله إلى الله ، ولولا أن المشركين أخرجونى منك ما خرجت » (معجم البلدان لياقوت ٥ : ١٨٣) .

كانوا يذكرون مكة فى أسمارهم ، ويذكرونها إذا ما اشتد بهم المرض حتى تسيل الدموع حنيناً إلى البيت العتيق .

ويأتى الأمر الإلهى بالتوجه إلى بيت المقدس فى الصلاة .

الكعبة الحبيبة فى قلوبهم . . ولكنهم لا يستقبلونها فى الصلاة .

وبيت المقدس قبلتهم فى حين يقاسون المؤامرات المتوالية ممن يتجهون إليه فى صلاتهم ، وهم يهود المدينة . أما النصارى فيتجهون إلى المشرق .

وتتضح صورة هذا التوتر النفسى إذا ما رجعنا إلى صدر سورة البقرة وهى أولى سور القرآن نزولا فى المدينة :

فهى تبدأ بعرض صنوف الناس أمام الإسلام : المؤمنين والكافرين

---

* الأهرام ١٨ من شعبان ١٣٩١ هـ = ١٩٧١/١٠/٨م .

والمنافقين . وتنتقل إلى عرض موجز لبدء الخليقة . ثم للمجتمع اليهودى فى تفصيل عميق ، وتقلبه بين الإيمان والكفر ، وإطاعة الأنبياء وقتلهم ، وفضل الله عليهم وعقوقهم ، وأساليبهم فى الحرب والسلم .

كل هذه المعلومات من الوحى ومن الحياة اليومية ، كانت أمام المسلمين وفى قلوبهم وفكرهم . .

ومع هذا كله يتجهون إلى بيت المقدس فى الصلاة . هذا والاستعداد العسكرى مستمر ، وسرايا الرسول عليه الصلاة والسلام وغزواته تجوب مسرح العمليات المنتظر : من ساحل البحر الأحمر إلى ما وراء مكة جنوباً بشرق طريق الطائف .

فمع التعبئة الفكرية والتنظيم السياسى لأوضاع المدينة الداخلية وما فيها من أحلاف ، ودعم الجبهة الداخلية وصيانتها من مكايد المنافقين واليهود — مع هذا كله كان فى القلب حنين إلى البيت الحرام واتجاه فى الصلاة إلى بيت المقدس .

واتخذ اليهود من هذا الموقف المتناقض — من وجهة نظرهم — ماده حديث .

لقد بدأ المسلمون أولا بالاتجاه نحو الكعبة . ثم اتجهوا إلى البيت المقدس (تفسير الطبرى ٣ : ١٣٩ ط . دار المعارف) .

وقال اليهود عن الرسول (عليه السلام) : يتبع قبلتنا ويخالفنا فى ديننا (تفسير الطبرى ٣ : ١٧٣) .

والمنافقون والمشركون ينفخون معهم فى كير الفتنة .

تحويل القبلة :

وتتصاعد أحداث المدينة ساسيًّا وعسكريًّا وفكريًّا فى الشهور الستة عشرة أو السبعة عشرة الأولى بعد الهجرة . ويقلب الرسول نظره فى السماء . وموضوع القبلة له حساسيته ومكانته .

ويأتى أمر الله بتحويل القبلة . .

ويدلنا السياق القرآنى على أن القضية كانت ساخنة عنيفة فى المدينة . .

فبعد أن ذكر الله تعالى آيات عن وحدة الإيمان بين الأنبياء جميعاً ، انتقلت الآيات الكريمة إلى الرد على الذين أثاروا الفتنة . وذلك قبل أن تذكر الآيات الأمر بتحويل القبلة . .

ونحن نقرأ قوله تعالى : « سيقول السفهاء من الناس ، ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ؟ قل لله المشرق والمغرب . يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم » (البقرة ، ١٤٢) .

ونعود إلى كتب التفسير لنرى صورة من هذا الحوار الفكرى، أو إن شئت اصطلاحاً حديثاً « الحرب النفسية » ، فى مجتمع المدينة حول قضية تحويل القبلة :

حوار ومحنة :

يقول الطبرى فى تفسيره (٣ : ١٥٦) : « إن محنة الله أصحاب رسوله فى القبلة ، إنما كانت ـــ فيما تظاهرت به الأخبار ـــ عند التحويل من بيت المقدس إلى الكعبة ، حتى ارتد فيما ذكر ـــ رجال ممن كان قد أسلم واتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم . وأظهر كثير من المنافقين ـــ من أجل ذلك ـــ نفاقهم : وقالوا : ما بال محمد يحولنا مرة إلى ههنا ومرة إلى ههنا ؟

وقال المسلمون ، فيمن مضى من إخوانهم المسلمين ، وهم يصلون إلى صخرة بيت المقدس : بطلت أعمالنا وأعمالهم وضاعت .

وقال المشركون : تحير محمد فى دينه . فكان ذلك فتنة للناس . وتمحيصاً للمؤمنين » .

كان هذا التحويل على المشهور فى منتصف شعبان ، وإن ذهبت بعض الأخبار إلى أنه كان فى رجب ولها أسانيدها .

وذهب الصحابة إلى الرسول يسألونه عما سلف من صلاتهم إلى بيت المقدس فنزل قول الله : « وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرءوف رحيم » (البقرة : ١٤٣) .

أما التحويل فأجاب عنه القرآن فى حسم ووضوح : « لله المشرق والمغرب » :

بيت المقدس لله . والمشرق لله . والبيت الحرام لله .

وإنما هى للمومنين تجربة « إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه » (البقرة : ١٤٣) .

وانتهزها اليهود فرصة فقالوا : اشتاق الرجل إلى بيت أبيه ودين قومه .

وسرى الأمر إلى مشركى العرب فقالوا : رجع محمد إلى قبلتنا ؛ وسيرجع إلى ديننا (الطبرى ٣ : ٢٠٢) .

ويرد عليهم الحق مثبتاً المؤمنين « فلا تخشوا الناس واخشونى ، ولأتم نعمتى عليكم ولعلكم تهتدون » (البقرة : ١٥٠) .

إنه إذن الأمر الإلهى الذى أتى مصدقاً لما يحب الرسول ويرضى « فلنولينك قبله ترضاها » (البقرة : ١٤٤) .

إسلام :

ألسنا نرى فى هذا صورة فيها بعض أوجه الشبه من قصة إبراهيم وإسماعيل « يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك » (الصافات : ١٠٢) .

وأسلم الولد والوالد أمرهما لله طواعية . فلما تحقق إسلام النفس كان فى هذا نجاة الوالد والولد ؟ . .

هذه الكعبة ملء قلوب العرب ، والله يأمرهم أن يتحولوا عنها إلى بيت المقدس برغم كل دسائس اليهود ومكايدهم . وقد بدأت قبل الهجرة عندما استعانت بهم قريش فى الحرب الفكرية بينهم وبين المسلمين .

ويمتثل المسلمون لأمر الله . . فلله المشرق والمغرب . . ويتحملون ضغوط الحرب النفسية ضدهم هذه الشهور صابرين مؤمنين . . فإذا ما تحقق فى النفس صدق التوجه إلى الله ، وكمال الإسلام إليه ، استجاب الله لرسوله والمؤمنين « فلنولينك قبلة ترضاها » .

ولقد كان من وراء ذلك هذا الحوار الساخن حول « اضطراب » الفكر الإسلامى ما بين الكعبة وبيت المقدس . . وظهور الدين الجديد بأنه يحول القبلة ههنا مرة وههنا مرة . .

ولكن مع كمال الامتثال كانت الحجة القوية التى — وإن قيدت الإسلام بالاتجاه نحو البيت الحرام — قد أكدت بصورة عملية أن الملك كله لله . . « ولله المشرق والمغرب » .

لقد كان فيها نوع من « الفطام » عن الاتجاه إلى البيت الحرام بعض الوقت امتثالا لأمر الله ، والاتجاه إلى قبلة لم يكونوا يتجهون إليها . . ثم عودة إلى هذه القبلة مرة أخرى . ثم كتب الله لهم مع الفتح أن تعود قبلتهم إليهم وطهروها من الأصنام .

مكانة المسجد الأقصى :

ولكن : هل مس هذا مكانة المسجد الأقصى فى نفوس المسلمين ؟

لقد كرم الله هذا المسجد فى كتابه فقال :

« سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا ، إنه هو السميع البصير » .

وإن الله يذكر فى القرآن لفظ « عبد » تمجيداً لرسوله فى أكرم مواقفه : جاء ذكره فى الإسراء والمعراج ، والدفاع عن صدق النبوة

وعن كتاب الله ، وتمجيداً لرسوله فى الدعوة إليه .

وإن الرسول (ص) ليذكر فى حديثه :

« لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ومسجدى هذا والمسجد الأقصى » .

هو المكان الذى بلغ من قداسته عند المسلمين : أنه فى العام الخامس عشر للهجرة عندما استطاع المسلمون تحرير بيت المقدس ، طلب أهلها أن يكون أول الداخلين إليها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب . وجاء الخليفة من المدينة مستجيباً لهذه الرغبة الكريمة . .

ولنسائل أنفسنا : من الذى يملى الشروط ؟ القائد المنتصر أم أهل المدينة ؟

ولكن مكانة بيت المقدس كانت أكبر فى نفوسهم من أن يبدى أهلها رغبة ثم تضيع وسط أفراح النصر .

وفى يوم التحرير ارتفع صوت بلال لأول مرة مؤذناً بالصلاة بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم . . ذلك الصوت الإفريقى المؤمن هو الذى أكرمه الله بأن يكون المؤذن الأول فى مسجد المدينة وفوق المسجد الحرام عام الفتح ، وفى القدس الشريف عند تحريره . . فما رئى المسلمون باكين بعد وفاة الرسول كما كانوا فى ذلك اليوم . .

هذه كرامة بيت المقدس عليهم : دخول فى خشوع مع بكاء وحنين إلى أيام النبوة العطرة .

ولم يرض عمر أن يصلى فى كنيسة القيامة لئلا يتخذها المسلمون من بعده مسجداً . . وهو يعلم أن الرسول أذن لنصارى نجران بالصلاة فى مسجد المدينة عندما زاروه فصلوا إلى المشرق (ابن هشام ٢ : ٢٢٤) .

الاستعداد للمعركة :

ومع الاحتفاظ فى القلب بمكانة بيت المقدس ، وإن انصرفت القبلة عنه ، والاتجاه إلى البيت الحرام ، وإن كانت الأصنام لم تزل فيه ، والحوار الدائر حول هذا كله فى لقاءات المؤمنين والمنافقين والمشركين واليهود ، فإن العمل السياسى والعسكرى كان يتصاعد باستمرار .

لقد فرض الله الصيام فى رمضان وشرع زكاة الفطر . . وبعد شهر من تحويل القبلة حدث اللقاء المباشر بين المسلمين وقريش فى غزوة بدر فى اليوم السابع عشر من رمضان وانتصر المسلمون (٣١٥) على قوة تزيد على ثلاثة أضعافهم . ولم يكن معهم من الخيل إلا اثنان أمام مائة فى معسكر الأعداء ومن الإبل سبعون مقابل سبعمائة .

وبعد الغزوة بنحو أسبوعين جمعت المؤمنين صلاة العيد : لهم قبلتهم وصلاتهم الجامعة وتضامنهم الاجتماعى بالزكاة وانتصارهم العسكرى فى بدر وأحزانهم النبيلة على من سبق إلى الله من الشهداء . . وتحددت نواح كثيرة من طبيعة المجتمع الإسلامى الجديد .

وانعكس هذا ضيقاً فى نفوسهم بهذه الصورة الجديدة .

– ماذا يفعلون بالربا وهذه الزكاة صورة من الإخاء ؟

– وماذا يفعلون بالفرقة والدس وهذه صفوف الصلاة تضم المسلمين .

– وكيف يستطيلون على المسلمين بالحصون وقد سجلوا هذه الانتصارات ؟ .

وأخذوا فى تحدى النبى (ص) والذين معه وحدث الصراع العسكرى الأول بينهم فى غزوة بنى قينقاع التى طهرت قلب المدينة من مكايدهم وقضت على سيطرتهم على التجارة الداخلية وعلى بعض الحرف الأساسية بما يرتبط بها من علاقات خارجية .

هذه هى ذكرى النصف من شعبان فى إطارها التاريخى ، وموقعها على خريطة الأحداث فى المدينة .

طبيعة الإيمان فى مجتمعنا المعاصر*

فى هذا الحديث لا أود أن أتناول الإيمان من الناحية النظرية فهذه متوافرة بين أيدينا ، يتلقاها الطالب على مقاعد الدرس والمواطن فى المسجد وأجهزة الإعلام . . .

ولكنى أود أن أطرح سؤالا عن الوجه الذى نود أن يبرز به الإيمان فى حياتنا .

ولنعد إلى عصر النبوة لنرى طبيعة الإيمان فيه وصلته بالحياة . .

كان الإيمان « بعثاً » كاملا متوازناً للحياة فى كافة مرافقها ، كان تحطيماً لكل قيد يحول دون انطلاق الحياة نحو غد أفضل . ولنقرأ فى هذا قول الله تعالى مبيناً مهمة الرسول (ص) « يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » . . (الأعراف : ١٥٧) .

من أجل ذلك كان اللقاء حتميًّا بين أحدث ما فى الحياة من علم وأعمق ما فيها من إيمان . لقاء كان إخصاباً للحياة نفسها بمزيد من العلم وآفاق جديدة يمكن أن يبرز فيها الإيمان ومن تفاعلها برزت ملامح الحضارة الإسلامية حافظة للتراث الإنسانى ، مثرية له ، وقائدة رائدة فى هذه الانطلاقة الكبرى .

الإيمان والماء :

وأستطيع أن أشبه الإيمان من هذه الزاوية بالماء : هو واحد ولكنه يوفر الحياة لكل حىّ ، « وجعلنا من الماء كل شىء حى »

ومن الممكن أن تتحول الاستفادة من الماء إلى شىء من العبث أو اللهو كفقاقيع الصابون يمرح بها الأطفال .

---

* المساء : ٢٦ من رمضان ١٣٩١ هـ = ١٤ نوفبر ١٩٧١ م

ومن الممكن أن يتحول إلى مستنقعات — إذا ما ركد — تنمو فيها الأوبئة .

ومن الممكن أن يتحول إلى شلالات تضيء الحياة بالكهربا وتدير المصانع . .

ولك أن تقارن بين موقفين لك : أحدهما أمام بركة آسنة من الماء ، ومحطة توليد الكهربا فى السد العالى . . الماء واحد . والموقع مختلف . . هنا ركود وهناك حركة وحياة .

الإيمان حركة :

لا نستطيع بهذا أن نتصور الإيمان مجرداً معزولا . هو فى أمره تفاعل . ويبدأ فى قلبك وفكرك ومنهما ينطلق إلى الحياة .

لذلك ربط الإسلام دائماً بين الكلمة والعقل . بين العقيدة ومجالات الحياة .

« إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا » . .

« إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات » . .

« وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » . .

بل أنت تجد ذكر الله فى القرآن وارداً فى المسجد كما يرد فى ميدان القتال . وفى هذا نقرأ قول الله تعالى :

« يأيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله . . » ، « يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله . . » .

وأنت بعد دخولك بيت الله للعبادة وأداء ما فرض الله عليك تقرأ قوله : « فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله. واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون » .

– دخول المسجد لذكر الله .
– والخروج منه ابتغاء لفضل الله .
– وأنت فى ميدان القتال تذكر الله .
والكون كله حركة . .
هذه الحركة المؤمنة تراها فى كل شىء حولك .
كل ما حولك حركة . .
الذرة الصغيرة . الكون الكبير . « الشمس تجرى لمستقر لها ... القمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم . لا الشمس ينبغى لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » .
الجمود إذن ليس من طبيعة الحياة ولا طبيعة الإيمان .

الإيمان والعلم :

وأهم مجال يتحرك فيه الإيمان الآن هو مجال العلم . . العلم بمفهومه الشامل الذى وضحه القرآن الكريم . .

فالإيمان بالله فى القرآن علم . واقرأ فى هذا قول الله تعالى : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم » . .

والصناعة فى الإسلام علم : « وعلمناه صنعة لبوس لكم لتحصنكم من بأسكم فهل أنتم شاكرون » . .

وآفاق هذا الكون آيات للعالمين ولأولى الألباب ، ولقوم يفقهون ، ولقوم يتفكرون .

طبيعة الإيمان :

بهذا المفهوم الشامل تبدو طبيعة الإيمان فى مجتمعنا :

– إنه القوة الدافعة إلى العمل فى كل مرافق الحياة .

– وهو الحافظ لها من الانحراف .

– وهو الذى يحدد لها مستواها الأخلاقى فى الأداء والتعامل .

الإيمان يظهر فى المصنع صناعة جيدة متقدمة . وفى الحقل عناية بالإنتاج وتطويراً له . وفى الجيش كفاية سلاح وجندى وتنظيم . وفى القيادة فكراً شاملا عميقاً له جذوره العميقة التى تربط بأرض الواقع ، وأجنحته التى يحلق بها فى المستقبل ، وقوة البصيرة التى يسلك بها الطريق وسط العقبات والعواصف .

إنه يبرز على مستوى الأسرة تراحماً وتماسكاً ، وعلى مستوى المجتمع كفاية وعدلا .

كل عامل فى أى موقع من مواقع إنتاجنا وخدماتنا وجهادنا المقدس إنما يعبر عن إيمانه حين يعمل . .

وهو فى الوقت نفسه يعمل بمستوى علمى عليه أن يزيد كل يوم كفاية وفاعلية ، وبهذا يتلاقى العلم والإيمان .

وإذا كان العلم هو «صورة العمل» فإن الإيمان هو « روح العمل » ، والصورة والروح فى لقاء هو « حياتنا الجديدة » .

ويتجلى هذا الإيمان أكثر ما يتجلى فى كل جهد فى القاعدة والجبهة نبذله اقتراباً من هدفنا الكبير : استعادة لأرضنا السليبة وبناء لمجتمعنا الجديد مجتمع العلم والإيمان .

دراسة الأعداء تربية وعبادة*

نحن الآن فى العشر الأواخر من رمضان ، فيها ليلة خير من ألف شهر ، أنزل فيها القرآن .

وفى العودة إلى القرآن تلاوة وتدبراً نور متجدد ما أحرانا أن نقف عند توجيهاته . . نستلهم منها الهدى فى اتخاذ موقف يكون يومه — وندعو ربنا — خيراً من ألف شهر .

والقرآن الكريم يعلمنا بهذا : أن الزمن ليس أمراً حسابيًّا فحسب ، وإنما هو أيضاً أمر نسبى : ترتفع فيه مكانة اليوم أحياناً إلى فوق مقام السنين . .

وما يوم الخامس من يونية ١٩٦٧ ببعيد .

مدخل إنسانى :

وعدت فى رمضان إلى القرآن الكريم ، ووقفت عند فاتحة الكتاب بادئاً « بسم الله الرحمن الرحيم » تالياً سورة هى عهد بين العبد وربه : عبادة واستعانة . سيراً على طريق الحق بدون انحراف فى جو من الحمد والرحمة عسى أن نكون مع الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم .

هذا مدخل إنسانى إلى الكتاب المبين ، أنت تتوجه فيه إلى خالقك .

وانتقلت بعدها إلى سورة البقرة فإذا مدخل إنسانى آخر يحتاج منا إلى وقفة وتدبر .

السورة تبدأ ببيان مواقف ثلاثة هم :

---

* الأهرام : فى ٢٤ من رمضان ١٣٩١ هـ الموافق ١٢ نوفمبر ١٩٧١ م .

— المؤمنون . الكافرون . المنافقون .

وأنت تجد عرضاً فيه شيء من الإيجاز لأمر المؤمنين والكافرين وتفصيلا أكثر لشأن المنافقين .

والمواقف الثلاثة واضحة : إيماناً وكفراً وتظاهراً بالإيمان مع إبطان الكفر . وفى موقف النفاق ترى أساليب متعددة ترمى إلى حرب الجبهة المؤمنة وتكوين جبهة مضادة بالتعاون مع الذين كفروا . . ترى أمامك حركة النفاق ومحاولة ضربه أو احتوائه منطقة الإيمان والعاملين فيها .

وتنتقل السورة بعد هذا معك إلى عرض موجز لبدء الحياة ، والسياق هنا محوره الإنسان أيضاً مع دعوة شاملة للناس جميعاً أن يؤمنوا بربهم الذى خلقهم والذين من قبلهم . وتنتهى قصة آدم هنا بتوبة الله عليه ، وتوضيح طريقى الإيمان والكفر والتكذيب وجزاء كل منهما .

دراسة العدو :

ولك أن تقف طويلا عند هذه القصة . فهى هنا تستغرق الجزء الأول من القرآن أو زهاءه . ثم أنت تراها بعد هذا فى مجموعات من الآيات فى السورة نفسها :

— لماذا هذه العناية ببنى إسرائيل ؟

— وكيف يعرض القرآن الكريم هذه القضية ؟

— ولماذا — ولله حكمته التى دعانا إلى التماسها — كانت فى هذا الموقع القرآنى والمصحف ترتيبه وحى من عند الله تعالى ؟ . .

ولنعد إلى وضعها التاريخى فى نزول القرآن . .

فالسورة مدنية بلا خلاف . وهى من أوائل مانزل بها إلا آيات معدودة هى من آخر ما نزل .

كان نزولها فى المدينة لأوائل عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) بها .

أيظل المسلمون يدعون إلى هذه الأخوة الإنسانية غير القائمة على الاستغلال ويقف يهود المدينة منهم موقفاً سلبيًّا .

حقًّا : لقد آمن جانب من أهل الكتاب .

ولكن هذا الترابط الوثيق بين أوضاع يهود المدينة فى مجالات الاقتصاد المحلى والخارجى وقيام حياتهم على الاستغلال والربا وتفتيت قبائل المدينة . . هذا الترابط أعطى حياة المدينة صبغة لا يستطيع الإسلام ولا يملك إلا أن يصطدم بها : حكماً مقدوراً عليه ، مهما حاول أن يرفع ألوية السلام . . وقد فعل . . لأنه أراد سلاماً قائماً على العدل خاض من أجله ما خاض من معارك .

ويبدو جانب من تربية القرآن فى هذا المجال :

لقد درست سورة البقرة المجتمع الإسرائيلى دراسة موضوعية تحتاج منا إلى وقفات طوال ، أرجو أن يوفق الله إلى العودة إليها .

درس هذا الشعب فى قوته وضعفه . فى إقباله على الله، وإدباره عنه . درس كيف التوت النفوس فيه التواء وصل إلى قتل الأنبياء، « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون » (البقرة : ٨٧) . درس تفضيلهم المال على الإيمان بحيث أصبح المال والدنيا عقيدة ، ودعاهم الله إلى الإيمان مسجلا هذا الطابع الذى صاغوا عليه حياتهم « وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا وإياى فاتقون » (البقرة : ٤١) .

فسورة البقرة بهذا الوضع وثيقة اجتماعية تمثل عرضاً تاريخيًّا وتشريحاً لهذا المجتمع الإسرائيلى بتطوراته وأعماقه وأبعاده . . وهو مجتمع ، كان على قاعدة الإسلام فى المدينة أن تدير معه الحوار بالكلمة أولا ، ثم بالسلاح إذا رفض الكلمة . . وهذا ما حدث .

وهذه الدراسة جعلت قاعدة الإسلام على علم بهذا العدو الخطر :

علم مسجل فى كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

أيظل المسلمون يدعون إلى هذه الأخوة الإنسانية غير القائمة على الاستغلال ويقف يهود المدينة منهم موقفاً سلبيًّا .

حقًّا : لقد آمن جانب من أهل الكتاب .

ولكن هذا الترابط الوثيق بين أوضاع يهود المدينة فى مجالات الاقتصاد المحلى والخارجى وقيام حياتهم على الاستغلال والربا وتفتيت قبائل المدينة . . هذا الترابط أعطى حياة المدينة صبغة لا يستطيع الإسلام ولا يملك إلا أن يصطدم بها : حكماً مقدوراً عليه ، مهما حاول أن يرفع ألوية السلام . . وقد فعل . . لأنه أراد سلاماً قائماً على العدل خاض من أجله ما خاض من معارك .

ويبدو جانب من تربية القرآن فى هذا المجال :

لقد درست سورة البقرة المجتمع الإسرائيلى دراسة موضوعية تحتاج منا إلى وقفات طوال ، أرجو أن يوفق الله إلى العودة إليها .

درس هذا الشعب فى قوته وضعفه . فى إقباله على الله، وإدباره عنه . درس كيف التوت النفوس فيه التواء وصل إلى قتل الأنبياء، « أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون » (البقرة : ٨٧) . درس تفضيلهم المال على الإيمان بحيث أصبح المال والدنيا عقيدة ، ودعاهم الله إلى الإيمان مسجلا هذا الطابع الذى صاغوا عليه حياتهم « وآمنوا بما أنزلت مصدقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتى ثمناً قليلا وإياى فاتقون » (البقرة : ٤١) .

فسورة البقرة بهذا الوضع وثيقة اجتماعية تمثل عرضاً تاريخيًّا وتشريحاً لهذا المجتمع الإسرائيلى بتطوراته وأعماقه وأبعاده . . وهو مجتمع ، كان على قاعدة الإسلام فى المدينة أن تدير معه الحوار بالكلمة أولا ، ثم بالسلاح إذا رفض الكلمة . . وهذا ما حدث .

وهذه الدراسة جعلت قاعدة الإسلام على علم بهذا العدو الخطر :

علم مسجل فى كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

علم يتلوه المسلم فى صلاته فى جوف الليل وحيداً : أو فى المسجد مع إخوانه فى الصلاة .

وبهذا تستطيع أن تقول إن دراسة العدو فى الإسلام عبادة . وأنت لاتستطيع أن تقابل خصمك إلا إذا كنت على معرفة به . معرفة حقيقية ليس فيها مبالغة ولا تهوين .

واجبنا :

وإن المعركة بيننا وبين العدو الإسرائيلى لها ــ فيما أحس ــ مجالات أربعة رئيسية : سلاح أمام سلاح . وعقيدة أمام عقيدة . وفكر أمام فكر . وجبهة داخلية أمام جبهة داخلية .

والاستراتيجية الكبرى التى تستطيع أن تتحرك بها ومن خلالها تقوم فيما تقوم على هذه القواعد الأربع . ومستوى التصرف العلمى والفاعلية ينبغى أن يتمثل فيها جميعاً .

وما أحرانا ونحن نربى أنفسنا وأبناءنا لكفاح طويل شاق فى مجتمع العلم والإيمان . . أن تكون رؤيانا واضحة فى هذا كله ، واستعدادنا له يتكافأ موضوعياً مع متطلبات المعركة .

وعلى هذا المنهج سار مؤرخو الإسلام ، فى دراسة العدو . ويكفى أن ترجع إلى ما كتب ابن هشام فى سيرته عند دراسة المغازى ، وعرضه الموضوعى لنواحى القوة والضعف فى معسكر الإيمان ومعسكر العدوان .

فهل لنا أن نعيد النظر فى برنامج التربية والتثقيف فى هذا الضوء القرآنى ، حتى نرى العدو فى حجمه الطبيعى بلا مبالغة ولا تهوين ونرى أنفسنا كذلك ونحدد بهذا واجباتنا ومسئولياتنا . .

أعتقد أن هذا سيكون له دفع قوى . وسندرك أبعاد التحدى الذى نخوض مراحله نحو نصر نستعيد به أرضنا ونبنى مجتمعنا ، ونعيش العصر علماً وإيماناً.

ثلاثة أصدقاء فى العيد*

أما الأصدقاء الثلاثة فهم عالم ومجاهد وشهيد ، أروى قصصهم من واقع حياتنا، وإليهم وإلى إخوانهم نبعث تحية العيد .

لقد تعودنا أن يصحب بعضنا بعضاً فى زيارات العيد ، فهل يأذن لى القارئ الكريم بأن أصحب فى هذا المقال أصدقائى الثلاثة .

١ ــ عالم :

جاءتنى مذكرة من إدارة التوجيه المعنوى بقواتنا المسلحة أن عالماً من علماء الدين قد أصيب فى الجبهة حينما كان يؤدى واجبه المقدس بين إخوانه من الجنود والضباط وأن الإصابة أدت إلى بتر الساق .

وذهبت إليه فى مستشفى الحلمية العسكرى ، وبعد أن صافحته بادأنى بقوله :

ــ لى كلمة أود أن أقولها قبل أن تبدأ حديثك معى :

قلت : تفضل .

قال : أود أن أستحلفك بالله ألا تجعل لما ترى من مصابى سبيلا إلى نفسك يدعوك إلى تقليل عدد الأئمة والوعاظ الذين تبعث بهم وزارة الأوقاف والأزهر إلى الجبهة .

وتابع حديثه :

لقد كنت أدعو إخوانى إلى الإيمان وإلى الثبات وأقول لهم إن طريقنا هو النصر أو الشهادة . ورأيت من حولى إخوة لى سبقونى إلى الله كانوا معى بالأمس القريب ثم اختارهم الله وهو سبحانه يتخذ منا شهداء . .

---

* الأهرام فى غرة شوال ١٣٩١ هـ ــ ١٨ نوفمبر ١٩٧١ م .

وأراد ربى أن يختبرنى فى بعض جسمى . . وتركت ساقى دفينة فى أرض المعركة . . وأدعو الله أن يجعلنى من الصابرين .

ووقفت صامتاً أمام هذا الإيمان . الأعين متلاقية . وعلى وجهه سكينة ، وإلى جواره صديق مصاب بجراح .

كل ما فى الحجرة أبيض . السرير . الأغطية . . حتى الكلمات كانت بيضاء ناصعة برغم الجراح .

وجلست إلى جواره أسأله عن ظروف الإصابة . وأخبرنى كيف سقطت قنبلة إسرائيلية غادرة على موقع كان يعمل فيه مع إخوانه من الجنود والضباط . بعضهم كان استشهاده كاملا . والبعض كان استشهاده جزئياً .. فى بعض جسمه ، ومنهم من ينتظر . وما بدّلوا تبديلا .. وانتقل الصديق بعد هذا إلى مركز تأهيل المحاربين بالدقى فكنت ألقاه هناك أجلس إليه أو أهدى إليه كتاباً جديداً . ونتعاون معاً فى أمره .

وحدثنى قائلا :

— إن إخوانى هنا يستمعون إلى خيراً من قبل . إنهم يعدوننى واحداً منهم . مصاباً مثلهم . وأنا أقضى وقتى أتنقل بين الحجرات أحدث المصابين عن الإيمان والصبر وأستمع إلى حديثهم . . فكثيراً ما يحتاج المصاب إلى من يستمع إليه لا إلى من يستمع منه . وكل أملى أن أبقى بين المصابين . هنا فى الدقى أو فى أى مستشفى عسكرى آخر أدعو إلى الله وأقوم بواجبى الدينى نحو إخوانى . .

وكنت أطيل النظر إليه ، أحاول أن أرى ما وراء الكلمات ، فكنت لا أحس منه إلا الإيمان الذى يشع من نفسه إلى نفسى ونفوس من حوله من المحاربين .

تحية له . . للأستاذ الشيخ عبد الحى يحيى شعبان كنموذج للإخوة العاملين من رجال الدين من الأوقاف والأزهر على خطوط المواجهة . . تحية لهم وتقديراً ، عبر عنه قائدامسيرتنا الرئيس أنور السادات بما منحهم

من أوسمة وما حملهم من أمانة عندما لقوه بعد تصحيح ١٥ مايو ١٩٧١ . وما قاله عنهم السيد الدكتور محمود فوزى رئيس الوزراء وقتئذ فى خطابه إلى مجلس الأمة عند توليه مسئولية منصبه .

٢ ـ مجاهد :

كان برنامج زياتنا للجبهة أن نلتقى أبناءنا من سلاح الطيران .

وضمنا لقاء فى مطار حربى . . وكان حديثهم عن مصر المستقبل . تخطيط القاهرة . إعادة بناء منطقة القناة . التوسع الصناعى . التقدم العلمى . الأسلحة الحديثة . الريف المضاء بالكهربا . . مشروعات تنمية نهر النيل .

لم يسألوا عن المعركة . . فقد كانوا هم المعركة . وذهبنا معهم فى جولة لمشاهدت طيارات الميج المقاتلة . وذكرت فى حماسهم ودقة شرحهم وإقبالهم على السلاح الحديث ، ما لقيته فى يوم سابق على خط المواجهة من نماذج رائعة فى وحدة الصواريخ ، وكيف استوعب أبناؤنا ما فيها من تكنولوجيا حديثة وأعدوا أنفسهم ليوم المصير .

وفى جلسة حول فنجان شاى كان حولنا عدد من شباب الطيارين . . معظمهم فى مطالع العشرينات من أعمارهم أجسام ضامرة من الحياة الرياضية والنظام الدقيق . قامت منتصبة كالرماح . وفى الوجوه بسمة الزهر . وفى العين نظرة الصقر إذا ما تحول الحديث إلى المعركة .

وتطرق الحديث إلى الدين والعقيدة وطالبوا بإرسال مزيد من الكتب الدينية إلى مكتبة المطار .

وقال أحد زملائى لضابط طيار فى أثناء الحوار :

ـ هل تصلى ؟

وكان السؤال مفاجئاً وظهر شىء من الاحمرار على وجه الضابط

ثم تمالك نفسه فى سرعة . . كأنه يوجه نفسه كما يوجه طائرته وقال للضيف
— عفواً . هل تأذن لى فى استفسار قبل أن أجيب ؟
وأذن له الضيف فقال الضابط الطيار :
— هل رأيت فى ملامحى ما يدل على أنى لا أصلى ؟
وأشرق وجهه بابتسامة مؤمنة وقال :
— وكيف لا أصلى وأنا أطير فى طائرتى وحدى بين السماء والأرض ليس معى إلا ربى . إننى أركب طائرتى على وضوء . وإذا لم أستطع صلاة ركعتين قبل الطيران ، أصلى بعد العودة من المهمة . .
فقال صديقى : يا بنى ؛ إنما أحببت أن أطمئن . رعاكم الله ووفقكم .

٣ — شهيد :

بين المسجد والمدرسة والبيت كانت طفولته .
أب مؤمن يرعاه . . وأم مؤمنة أرضعته أخلاقها .
وكان يستطيع لو أراد أن يكون بعيداً عن المعركة فى تخصصه العلمى ولكن إسرائيل فوق جزء غال من أرضه . . ولهذا الجزء ، نداء يسمعه فى صحوه ، ويرافقه فى أحلامه . ويلتحق بالقوات المسلحة ويتخرج من الكلية . ويأتى توزيعه فى الإسكندرية . ومرة أخرى كان يستطيع لو أراد أن يكون بعيداً عن خط المواجهة الساخن .

كان محبوباً من زملائه وجنوده . . ومحل تقدير من رؤسائه . صارماً فى الحق ، هادئاً كالنسيم فى صحبته .

ويكتب إلى قيادته طالباً أن ينقل إلى ميدان المواجهة . . وتستجيب القيادة لهذا الإيمان . ويودعه إخوانه ويحتفظون بالكثير من صوره فى محافظهم وعلى مكاتبهم صورة المقاتل المؤمن فى معركة المصير .
وتغير طائرات إسرائيلية على موقع مدفعيته فيظل يقاتل ويقاتل . .

وتتساقط القذائف حوله فى حقد محموم . ويشتد التركيز . ويأتيه قدر الله فيلقى ربه شهيداً بعد أن أدى ما عليه من واجب.

قصة طولها الزمنى ثلاثة وعشرون عاماً .

وبطلها الشهيد محمد جودة الذى أنبتته أرض « تلا » الطيبة .

ويصل الخبر إلى الأب المؤمن والأم المؤمنة .

وتتحول كل مدخرات الأسرة المرتبطة بالشهيد وما له من تعويض إلى هدف واحد « بيت الله » .

جاءنى الأب المؤمن لأكون معه فى افتتاح المسجد فى شهر رجب الماضى (١٣٩١) ويحدثنى عن ولده وإيمانه .

وما أعمق الأثر الذى يتركه فى النفس لقاء أب الشهيد . .

وأشد منه عمقاً حين تلقى أم الشهيد .

وكأن الأب كان يقرأ ما فى نفسى فأخبرنى أن الأم الجليلة المؤمنة كانت تغرس فى نفس ولدها وحبيبها معانى الجهاد والتضحية ، وأنها أوصته بالثبات والتوجه إلى الله فى آخر زيارة له قبل الرحيل . . .

ولقيت الأم الجليلة بعد افتتاح المسجد والمشاركة فى الحفل بما يسر الله من كلمات وإحساس ، وكأنى أراها « مصر » .

مصر الأم .

مصر البطولة التى تقدم أبناءها إلى أشرف المواقع .

وكأنى أسمع منها قول عروة بن الزبير حفيد أبى بكر الصديق رضى الله عنه، وقد نعى إليه ولده : « أما الغلام فوديعة الله عندى متعنى الله به عشرين عاماً ثم قبضه إليه . له الشكر حين أعطى ،وله الحمد حين استرد الوديعة » .

وديعة تأتى يوم القيامة مع النبيين والدنيا كلها وراءهم تبع . . ولتقرأ فى هذا قول الله تعالى : « ووضع الكتاب وجىء بالنبيين والشهداء وقضى

بينهم بالحق وهم لا يظلمون ووفيت كل نفس ما عملت وهو أعلم بما يفعلون » (الزمر ٧٠) .

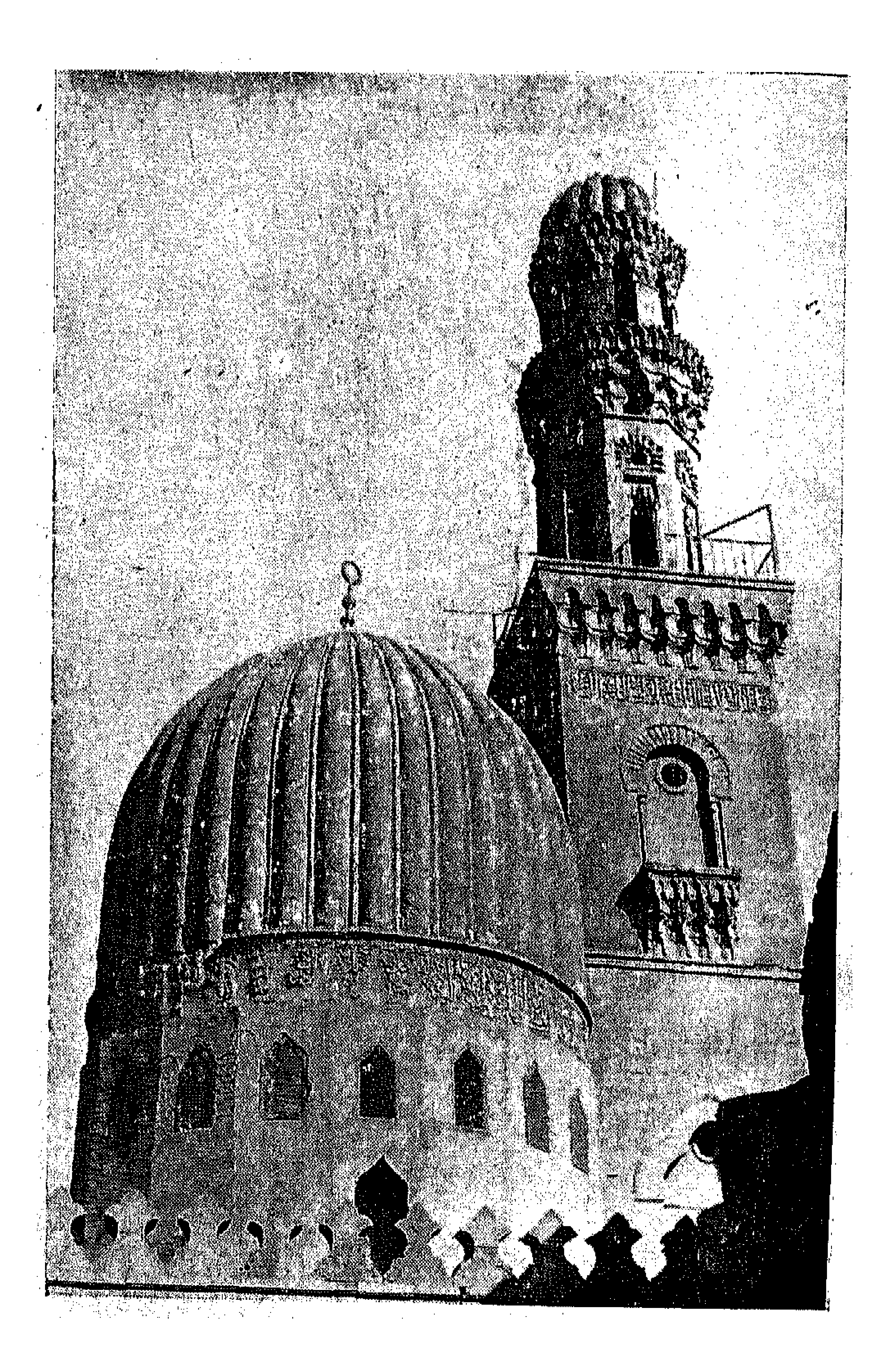
إنهم الأحياء الفرحون المرزوقون المستبشرون . وفى هذا نقرأ قول الله تعالى :

« ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون . فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألاّ خوف عليهم ولا هم يحزنون . يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضيع أجر المؤمنين » .

تحية :

وفى يوم العيد نبعثها تحية إلى قواتنا المسلحة الرابضة على خطوط المواجهة . .

. . تحية إلى كل مجاهد، وإلى كل مصاب ، وإلى كل شهيد، وقادة العروبة والإسلام وكل محب للسلام عامل له . داعين الله — جلت قدرته أن يبارك فى كل نبضة قلب ، وحركة فكر ، وجهد يد ، وانطلاقة سلاح ، وقطرة دم ، لنكون جميعاً روافد النصر فى معركة المصير .



سلسلة (اقرأ)

الكتب التى نشرت فيها منذ
صدورها فى يناير ١٩٤٣ حتى الآن

القصة

١ أحلام شهر زاد (د. طه حسين)
٦ شاعر ملك (على الجارم)
١٢ سنوحى (د. محمد عوض محمد)
١٤ من يوميات فتاة عصرية (حسين شوقى)
١٨ قنديل أم هاشم (يحيى حقى)
١٩ سيدة القصور (على الجارم)
٢٢ جحا فى جانبولاد (محمد فريد أبو حديد)
٣٠ قطر الندى (محمد سعيد العريان)
٣٢ الشيخ قرير العين (كرم ملحم كرم)
٣٤ فارس بنى حمدان : أبو فراس الحمدانى (على الجارم)
٤٣ عنترة بن شداد (محمد فريد أبو حديد)
٥١ الشاعر الطموح : المتنبى (على الجارم)
٥٨ خاتمة المطاف (على الجارم)
٦٠ شجرة الدر (محمد سعيد العريان)
٦٢ مرح الوليد (على الجارم)
٦٣ رقيق الأرض (نظمى لوقا)
٦٧ أمير قصر الذهب (طاهر الطناحى)
٨٧ غادة رشيد (على الجارم)
٩٢ الجامحة (أمينة السعيد)
١٠٥ الحب الضائع (د. طه حسين)
١٠٦ سجل التوبة (أمين الريحانى)
١٠٨ سارة (عباس مود العقاد)
١١٦ اللحن الشرود (كرم ملحم كرم)
١٢١ عذراء الأندلس (أحمد الصاوى محمد)
١٢٢ أشطر من إبليس (محمود تيمو)
١٢٩ زامر الحى (محمود تيمور)
١٣٠ فى بطون الليالى (رشاد دارغوث)
١٣٥ ليلى العفيفة (عادل الغضبان)
١٣٦ أبو على الفنان (محمود تيمور)

الأدب

٢ شاعر الغزل : عمر بن أبي ربيعة (عباس محمود العقاد)
٤ عود على بدء (إبراهيم عبد القادر المازني)
٨ مذكرات دجاجة (د. إسحق موسى الحسيني)
١٣ جميل بثينة (عباس محمود العقاد)
٢١ أبو نواس (عبد الحليم عباس)
٢٣ صوت أبي العلاء (د. طه حسين)
٢٦ العشاق الثلاثة : كثير وجميل وابن الأحنف (د. زكي مبارك)
٣٣ في بيتي (عباس محمود العقاد)
٤٧ أبو زيد الهلالي (محمد فهمي عبد اللطيف)
٤٩ بين البحر والصحراء (شفيق جبري)
٥٩ الجواري (د. جبور عبد النور)
٧٤ قصر الرشيد (د. طه الحاجري)
٧٦ ثم غربت الشمس (د. سهير القلماوي)
٨٣ من النافذة (إبراهيم عبد القادر المازني)
٩٦ شيخ التكية (محمد عبده عزام)
١٠٢ من نافذة العقل (د. نقولا فياض)
١٠٩ نديم الخلفاء : الحسين بن الضحاك (عبد الستار أحمد فرج)
١١٨ المعذبون في الأرض (د. طه حسين)
١٢٠ شاعر الشعب : حافظ إبراهيم (د. محمد سامي الدهان)
١٢٦ من ذكريات الفن والقضاء (توفيق الحكيم)
١٢٨ الجدة الصغيرة (حسن محمود)
١٣١ أمين الريحاني (فاروق عبود)
١٤٧ مارس يحرق معداته (عيسى الناعوري)
١٥٧ غرام الأدباء : طه والحكيم والعقاد وتيمور والزيات وأبو حديد والعريان والشناوي (عباس خضر)
١٨٢ لمحات من الأدب الروسي (ماهر نسيم)
١٩٣ دون جوان (لطفي عبد البديع)

السير والتراجم

٦٥ عمر بن عبد العزيز (أحمد زكي صفوت)
٦٨ جمال الدين الأفغاني (عبد القادر المغربي)
٧٠ الجبرتي (خليل شيبوب)
٧٢ فولتير (سليم سعده)
٧٧ المغني المجنون : كاروزو (أحمد الصاوي محمد)
٧٨ سقراط (علي حافظ يهنسي)
٧٩ بيرانديللو (محمد أمين حسونة)
٨٢ فرانزليست (خليل هنداوي)
٨٥ بيتهوفن (محمدفهمي أبوالنصر وهدى حبيشة)
٨٩ برناردشو (عباس محمود العقاد)
٩١ جابر بن حيان وخلفاؤه (محمد محمد فياض)
٩٩ نساء محاربات (صوفي عبدالله)
١١٢ مع طه حسين (سامي الكيالي)
١١٣ عبقرية الإمام (عباس محمود العقاد)
١١٥ الإمام المراغي (أنور الجندي)
١١٩ نساء شهيرات (مبارك إبراهيم)
١٢٥ الصديقة بنت الصديق (عباس محمود العقاد)

١٢٧ شلي (أحمد الصاوي محمد)
١٣٩ تيمورلنك (محمد محمد فياض)
١٤٠ عائشة بنت طلحة (كمال بسيوني)
١٤٢ بطل السند ومحمد بن القاسم (محمد عبد الغني حسن)
١٤٣ ابن عمار (ثروت أباظة)
١٥١ العاشقة المتصوفة : رابعة العدوية (وداد سكاكيني)
١٦٢ مكسيم غوركي (نجاتي صدقي)
١٦٤ دانتي (مصطفى آل عيال)
١٧٢ المخترعون (أحمد طه السنوسي)
١٨٧ طاغور (د. جميل جبر)
١٩٢ أدباء من الجزائر (د. إبراهيم الكيلاني)
١٩٧ جان جاك روسو (د. محمد سامي الدهان)
٢٠٤ فيكتور هوجو (د. جورج زايد)
٢٠٧ الناصر صلاح الدين (د. محمد سامي الدهان)
٢٢٣ الشاعر الشهيد هاشم الرفاعي (محمد كامل حته)
٢٣٢ أبو القاسم الشابي (رجاء النقاش)

٢٥٠ ابن حمد يس الصقلي
(على مصطفى المصراني)

٢٥٤ من أعلام الحرية فى العالم العربى الحديث
(أنور الجندى)

٢٥٦ عشرة من الخالدين
(إبراهيم المصرى)

٢٦٩ قلوب الخالدين (إبراهيم المصرى)

٢٧٧ عبد المطلب جد الرسول
(د . على حسنى الخربوطلى)

٣٠١ مع طه حسين ، الجزء الثانى
(سامى الكيالى)

٣٠٦ سندباد فى رحلة الحياة
(د . حسين فوزى)

٣٢٤ هوشى منه (جورج عزيز)

٣٣٦م. أيام خالدة فى حياة عبدالناصر
(د . جمال الدين العطيفى)

٣٤٠ محمد عبدالوهاب (محمود عوض)

٣٤٩ هؤلاء علمونى (سلامة موسى)

سياسة وعلوم سياسية

٩ المذاهب السياسية المعاصرة
٧ (على أدهم)

٥ قضية فلسطين (محمد رفعت)

١٠٧ تحرير وادى النيل
(محمود كامل المحامى)

١٤٥ أخى المواطن (فتحى رضوان)

١٧ هذا الشرق العربى
(فتحى رضوان)

٢١٢ العرب ورسالتهم الإنسانية
(د . على حسنى الخربوطلى)

٢١٦ وحدة العرب
(إبراهيم الدسوقى البساطى)

٢٦١ عروبتنا (محمود كامل)

٢٧٤ المزاعم الصهيونية فى فلسطين
(فتحى فوزى عبد المعطى)

٢٧٥ الوحدة الإفريقية
(محمد أبوالفتوح الخياط)

٢٩٥ فلسطين قلب العروبة
(محمد فيصل عبد المنعم)

٢٩٦ البترول العربى فى المعركة
(د. محمود أمين)

٣١٠ حوار مع برتراندراسل وسارتر
(لطفى الخولى)

علم النفس

علوم

٣٨ العلم والحياة
(د . على مصطفى مشرفة)

٤٨ غرائز الحيوانات
(محمد محمد فياض)

٥٢ النار الخالدة (فؤاد صروف)

٥٥ مع الأسماك
(د. حسين فرج زين الدين وموسى باسيليوس)

٦١ الموج الساحر
(محمد عاطف البرقوقى)

٦٦ مملكة العذارى
(د . أحمد زكى أبو شادى)

٧٣ أسرار الحياة
(د . مصطفى عبد العزيز و د . عبد العزيز أمين)

٧٥ العيون فى العلم
(قدرى حافظ طوقان)

٨٤ الوراثة والجنس
(د . عبد الحليم منتصر)

٩٠ قصة البترول
(يوسف مصطفى الحاروني)

٩٣ العالم سنة ٢٠٠٠
(على عبد الجليل راضى)

١٠٠ قصة العناصر (إمبابى أحمد)

١٣٢ البساط السحرى
(عبد السلام فهمى)

١٤٩ بين البقاء والفناء
(قدرى حافظ طوقان)

١٥٤ أينشتين والعالم
(محمد عاطف البرقوقى)

١٧١ حرب الخامات
(د . عبد الحليم منتصر)

١٧٨ الصعود إلى المريخ
(د . محمد جمال الدين الفندى)

١٨١ هجرة الحيوان
(د. أحمد حماد الحسينى)

١٨٥ الغبار الذرى
(د . محمد جمال الدين الفندى)

١٨٩ عصر الإلكترونات
(د . جورج وهبه العفى)

١٩١ الهزات الزلزالية
(محمد على المغربى)

١٩٦ قوى الطبيعة فى خدمتك
(محمد جمال الدين الفندى)

١٩٨ الكلف الشمسى
(محمد على المغربى)

٢١٤ عصر التليفزيون
(د . جورج وهبه العفى)

جغرافيا ورحلات

الفهرس



تم إيداع هذا المصنف بدار الكتب والوثائق القومية تحت رقم ٥٢٦٣ / ١٩٧٢

مطابع دار المعارف بمصر سنة ١٩٧٢